مطبوعات أخبار اليوم
قطاع الثقافة

تائه فى لندن

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الي صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: تائه في لندن.. للكاتب محمد عفيفي إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع علي تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه علي ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا علي توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

تائه في لندن

محمد عفيفي

بشائر لندن

ما كدت أدخل بهو المطار حتى جلجل في الميكرفون صوت نسائي يردد هذا النداء الغريب:

- مستر موهاميد آفيفى هوسين!

وحيث أن العبارة تبدأ بكلمة مستر فقد كان من الواضح إنها تردد اسم رجل ما، ذلك الاسم الذي خيل إلى إنه ليس غريبا عني تماما.

- مستر موهاميد أفيفي هوسين! هكذا كررت السيدة الإنجليزية نداءها، ولم أحتـج منها إلى أكثر من تكراره مرة أخرى لكي أنتبه إلى إنه لا يخرج عن كونه اسمي الكريم!

وكان طبيعيا أن يقترن ذلك الاكتشاف بخفقة قلب زائدة، لأنه كيف عرفت تلك السيدة أنني قد وصلت إلى لندن؟ وإذا كانوا قد التقطوا لها اسمي من بين كشوف الركاب فلماذا ينادون عليّ، وماذا يريدون مني؟!

هناك احتمال لأن يكونوا - لسبب أو لآخر - قد اشتبهوا في أمري وظنوا أننى قد حضرت بقصد إجرامي، كسرقة جواهر التاج مثلا، ولكنني رأيت إنه - بالنظر إلى صحيفة سوابقي - احتمال ضعيف جدا.. فلا يبقى إلا أن يكونوا متابعين لكتاباتي، وأنهم ما برحوا ينتظرون وصولي لكي يحاولوا استدراجي للكتابة في إحدى صحفهم التي أرجو ألا تكون جريدة التايمز.. فمثل هذه الجريدة ذات الميول الصهيونية لا يمكن أن تلائم مزاجي، وأفضل منها بكثير صحيفة الجارديان ذات الميول المعتدلة والمنصفة في كثير من الأحيان، الأمر الذي لا أظن سوف يجعلني أتزحزح عن مائة جنيه استرليني كثمن للمقال الواحد!

فقصدت إلى مصدر الصوت لأجد فتاة حلوة على رأسها برنيطة مضحكة، مضيفة أرضية عندها ورقة تركها لى أحد المعنيين بأمري، صديق لي كان قد وعد بانتظاري في المطار ثم علم هناك أن طائرتي سوف تتأخر عن موعدها عدة ساعات ولن تصل إلا بعد منتصف الليل، فرأى من الأفضل أن يعود إلى منزله لينتظرني هناك بصحبة زجاجة سكوتش. فهي كما ترى فرحة لم تدم طويلا، وكانت وجيزة جدا تلك الفترة التي قضيتها في «فليت ستريت».

وأحالتني البنت إلى رجل من الجمرك قال لي:

- لماذا تزور لندن؟

هكذا سألني موظف الجمرك وهو ينقل بيني وبين الباسبور نظرة متعبة تدل - بما لا يقبل الشك - على الموقف الاسترليني العام. وكنت قد أنذرت من قبل بأنني سأواجه بهذا السؤال التقليدي في جمرك لندن، ولذلك سليت نفسي في الطائرة بإعداد بعض الاجابات المبتكرة التي أرجو أن تزيل عن نفس الموظف

المسكين ذلك الملل الذي لابد إنه يعانيه من طول استماعه لنفس الاجابات الرسمية المتكررة.

إجابة رقم 1: لكي أتفرج على تغيير الحرس!..

إجابة رقم ٢: لكي أطعم الحمام في ميدان الطرف الأغر!.

إجابة رقم 3: لكي أدعو سارة تشرشل إلى كأس!..

إجابة رقم 4: لكي أتفرج على الجيوكوندا في نسختها الأصلية!..

والمفروض بالنسبة لهذه الإجابة الأخيرة أن يقول لي الرجل:

- ولكن الجيوكوندا في باريس لا في لندن.. فأجيبه بقولي:

- هذا ما اكتشفته وأنا في الطائرة!

فيضحك الرجل وسائر زبائن الجمرك، وأكون بذلك قد أثبت وجودي الفكاهي من اللحظة الأولى.

غير أنني لسبب أو آخر - لرهبتي للموقف في أغلب الظن - لم أنجح في التفوه بأي من تلك الاجابات، ولم أزد عن قولي في حدة لا مناسبة لها:

- ألا تحب أنت أن تزور القاهرة؟

ففكر الرجل لحظة قبل أن يقول:

- ول!..

وهي المرادف الإنجليزي لقولك بالعربية:

- يعنى!..

وبابتسامة جمركية باهتة وموزعة بيني وبين الزبون الذي ورائي، ناولني باسبوري وهشني إلى شوارع لندن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في الطريق

في انتظار تاكسي يحملني إلى منزل صديقي رأيت أن أفوت تاكسًّيا بعد آخر، نافرا من تلك السيارات السوداء الكبيرة التي تمر بي، ومنتظرا أن يصل تاكسي مرسيدس محترم أو حتى نصر..!!

ولكن انتظاري طال دون أن يمر بي سوى تلك السيارات السوداء الكئيبة التي تبين لي فيما بعد إنها هي النموذج الموحد للتاكسي اللندني، والتي لا ينقصها لافتة كُتب عليها «تحت الطلب» لكي تتحول إلى سيارة من السيارات التي نخصصها عندنا لنقل الموتى!

وصديقي الذي سهر في انتظاري صحبني (لاحظ ترنحه الخفيف) إلى عمارة في شارع هادئ قريب، خال من المارة حتى لتكاد تسمع فيه شخير النائمين. والعمارة ترتقي إلى بابها سلما حجريا من بضع درجات، والباب للأسف مغلق يحتم على أن يكون أول شيء أفعله في لندن - يا للخجل! - هو إيقاظ السيد البواب!

فابتسم صديقي في رثاء لسذاجتي الشرقية وأخرج من جيبه مفتاحا دسه في الباب فإذا به ينفتح، وإذا به يدخل وأنا وراءه وكأنه بيت أبينا! فلكل ساكن بالفندق - كما أفهمني - مفتاحه الخاص بباب العمارة إلى جانب مفتاحه الخاص بحجرته، والبوابون نوع من الرفاهية التي لم تنجح الدول الغنية بعد في استيرادها من الدول النامية!

- طيب والحرامية؟

هكذا سألت صديقي فقال إنه من السهل بالطبع على أي إنسان أن يدخل الفندق بمفتاح مستعار، ولكن الحاصل أن اللصوص الإنجليز لا يميلون إلى السطو على المنازل مفضلين أن يتفرغوا للسطو على البنوك والقطارات.

- والدول النامية!

هكذا أضفت وأنا أصعد إلى حجرتي، وهناك هممت بأن أخلع ثيابي لولا ما تنبهت إليه من أن شيش النافذة مفتوح وليس ثمة ما يستر الحجرة سوى ستارة خفيفة تغطي زجاج النافذة. ولما كنت أرفض أن أعرض مفاتني على الشعب الإنجليزي بهذه السرعة فقد قصدت إلى النافذة لكي أقفل شيشها. ولكن هذا كان عملا مستحيلا تماما، لا لأن الشيش عصلج في يدي أو ما شابه ذلك وإنما لأن النافذة لم تكن مزودة بأي نوع من الشيشان، مجرد لوحين من الزجاج تغطيهما - أو قل تفضحهما - تلك الستارة الشفافة المضحكة. فلابد أن صديقي - حرصا منه على فلوسي أو خوفا من أن أفلس وأقترض منه - قد تعمد أن يختار لي هذا الفندق الرخيص الذي لا شيش له، الأمر الذي لا يترك لي مفرا من أن أبحث عن فندق آخر في الصباح.

ولكنني لم أفعل ذلك بالطبع، وذلك لما أطلعني عليه نور الصباح من أن كافة النوافذ في كافة العمارات حولي من نفس النوع، مجرد لوحين من الزجاج تغطيهما تلك الستارة الفاضحة ونظرا لما اكتشفته فيما بعد من أن هذه حال المدينة كلها فقد فهمت أن الشيش هو الآخر - مثل البواب - من الرفاهيات التي لم تصل بعد إلى الدول الثرية.

وكان صحوي في الصباح على شعاع شمس دافئ تسلل إلى سريري من خلال الستارة الشفافة، الأمر الذي فهمت منه لماذا يرفضون تركيب الشيش للنافذة، وذلك لكي يستيقظوا مع شروق الشمس ولا تروح عليهم النومة مثلنا! ومتمطعا تحت الشعاع الدافئ المبهج كرهت أولئك المغرضين الذين يشنعون على العاصمة البريطانية ويقولون إنها بلد غير ذي شمس. ثم نهضت ولبست الرداء المناسب لهذا الصباح المشرق وهو البنطلون والقميص أبو نص كم، ذلك الزي الذي لم أخرج به لسبب قد يبدو لك غريبا بعض الشيء وهو عدم موافقة صاحبة البيت؟

سيدة قصيرة بدينة مرحة معقوفة الأنف مكورة الوجه، ذكرتني بأمي في صباها فأدركت من البداية إنه من شبه المستحيل أن يكون لها من دور في حياتي سوى دور صاحبة البيت! عن اسمي سألتني وعن هويتي، متطرقة إلى سؤالي عما إذا كنت قد أخذت فكرة من صديقي عن الأجر الذي تتقاضاه من الزبون في مقابل المبيت والإفطار. وباطمئنانها على ذلك قالت:

- ماذا تحب أن أطبخ لك؟ وضغطت على كلمة «أطبخ» كي تفهمني أن إعداد الافطار ليس لعبة كما قد يتوهم شرقي ساذج مثلي. فتمنيت أن أطلب منها أن تطبخ لي صحنا من الفول المدمس ولكنني تذكرت أن هذه رفاهية ثالثة لا يمكن أن تكون قد وصلت بعد إلى لندن.

- هل تحب البيض المسلوق؟

- أحبه!

- أم تفضله مقليا؟

- لا مانع؟

- وهل تحب بيكون؟؟

فتفكرت في الموضوع لحظة قبل أن أقول لها باسما:

- روجر أم فرانسيس؟

وانتظرت أن تضحك ولكنها لم تفعل، وتاريخ الفلسفة على العموم ليس من الأشياء التي يتوقعها الرجل المصري عند صاحبة البيت الإنجليزية، وقد رفضت البيكون بالطبع لأنني لا أحب وأنا متجه إلى الجنة أن أجد خنزيرا يسد عليّ الطريق!

ثم نظرت الحرمة السكسونية إلى ثيابي بنوع من الريبة وقالت:

- هل ستخرج هكذا؟

- ولم لا.

- ربما تمطر!

- في مثل هذا اليوم الصحو؟ يا شيخة!

- كما تشاء!

واستدارت وخرجت لكي تطبخ لي الافطار المكون من بيضتين مسلوقتين وصحن من المربي وكوب من عصير فاكهة لا أعرفها. وانتهيت من إفطاري فوقفت أتفكر في تحذير السيدة لي بشأن المطر، أفليس من الممكن أن تكون الولية أدرى مني بجو بلادها؟ وسرعان ما أتاني الجواب من الخارج، إذ خيل إليّ مدى لحظة أن الكهرباء قد انقطعت عن الحجرة لولا ما تذكرته من أننا في الصباح وليس ثمة مصابيح مضاءة. وعلى الغرفة زحفت موجة مفاجئة من اللون الرمادي القاتم، وإذا بالمصباح الذي انطفأ هو المصباح الأعظم المسمى بالشمس! ورنين على زجاج النافذة لقطرات المطر التي بدأت تتساقط وتنزلق على الزجاج في خيوط طويلة متلاحقة. في غمضة عين تطايرت أوراق النتيجة. كما يحدث في السينما - من شهر أغسطس إلى شهر فبراير، ورعدة مفاجئة بدأت تسري في بدني تحت القميص ذي النصف كم! فأسرعت إلى البدلة ألبسها بدلا منه، وتمنيت وقد لبستها لو كان معي بلوفر أضيفه إليها، ويا حبذا بكوفية أيضا!

وبينما أنا خارج رجوت ألا تراني الولية لكي لا تشمت بي، ولكنها ضبطتني ولسعتني من بعيد بنظرة سكسونية ساخرة.

- جالك كلامي؟!

هكذا قالت لي قبل أن تضيف شارحة:

- ذس إذ لندن بونو؟

ورأتني أقف عند الباب مترددا في الخروج تحت المطر فقالت:

- هل تحب أن تستعير مظلتي اليوم؟

وضغطت على كلمة «تستعير» مخافة أن تتحول في عقلي والعياذ بالله إلى تأخذ! كما ضغطت على كلمة «اليوم» مخافة أن تصبح استعارتي للشمسية عادة يومية! وعلمتني كيف أفتح تلك المظلة العتيقة السوداء وكيف أقفلها، مخطرة إياي زيادة في الفائدة بأن ثمنها ثلاث جنيهات ونصف! وعند الباب وقفت أتهيأ لخوض التجربة المبتلة، لحظة من التردد ثم تنحنحت بالحزم اللازم وخرجت، غير ناس بالطبع أن أرفع حاجب السخرية الأيسر بما يناسب رجلا يحمل المظلة في شهر أغسطس! وتحت المظلة سرت متحديا للمطر المنهمر وشرعت في رحلة التوهان في شوارع لندن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

السيقان الموسيقية

كذكر شرقي أعترف بأن أول ما لفت نظري في الشارع اللندني هو الميني جوب الذي يسمونه هنا بالميني سكيرت، مع ازدياد في الاهتمام من ناحيتي عندما يتحول إلى ميكرو جوب، مرتفعا إلى أعلى حتى يصل إلى مستويات ينسى معها إنه كان في أي يوم من الأيام عند الركبة، وحتى يوشك أن يتحول مما فوق هذا إلى ما تحت ذاك! ونسمة لندنية عابثة تهب عليه فتعطيك فكرة عن حقائق الحياة ما كنت لتأخذها بغير شهادة من المأذون أو من كلية الطب! مثل هذا اللباس لو ظهر في الشارع القاهري لبظّت عين أكثر من ذكر مصري، ولالتوى أكثر من عنق، ولربما قامت مظاهرة طلابية تحتاج في فضها إلى أكثر من سيارة نجدة. فلو أن ذكور لندن كانوا من نفس النوع لتوقفت الحياة هناك توقفا تاما، ولكان في مقدور جيش أجنبي أن يحتل المدينة ويعلن الجمهورية بدلا من الملكية والشعب الإنجليزي مشغول بالبحلقة! فليس ثمة بنت في لندن لا تلبس الميني أو الميكرو، ذلك اللباس العصري الذي صار بمثابة الزي الرسمي لأنثى البشر. وعلى الأرصفة تتواثب آلاف السيقان الطويلة البيضاء العارية، أشبه بمفاتيح البيانو البيضاء وهي تتماوج تحت أصابع روبنشتين.

وأنت في لندن لا ترى السيقان السكسونية فحسب، بل إنها تعرض عليك - لندن وبصفتها مدينة سياحية من الدرجة الأولى - كافة السيقان الغربية على مستوى حلف الأطلنطي والكومنولث! حاشا لله أن تحجب عنك فخذيها أنثى دون الثلاثين من العمر، أو دون الأربعين إذا أخذنا في اعتبارنا قدرة معاهد التجميل الحديثة على إزالة آثار البعد الرابع. والعذرية بالطبع ليست شرطا لارتداء ذلك الثوب، فمع هذا الشرط ما كانت ترتديه أية أنثى من الغرب! بل يكتفى كما قلت أن تكون الأنثى في شبابها، والشباب لا يتنافى مع أن تكون زوجة وأما لأكثر من طفل. ولقد رأيت كثيرا من الأمهات يدفعن عربات الأطفال بالمينى والميكرو، ذيول فساتينهن الرمزية تهفهف على رؤوس الأطفال السعداء في جناتهم الصغيرة، والجنة كما تعرف تحت أقدام الأمهات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نوع من العيون

وبالطبع يزداد الأمر طرافة عندما تجلس لابسة ذلك الثوب أمامك، عارضة عليك من الثروة التشريحية ما لا شك إنه يضيّع على العريس الغربي كثيرا من مباهج الاكتشاف في ليلة الزفاف! وبمثل هذا الفستان جلست أمامي إحداهن في عربة المترو، وبالصعوبة المناسبة للذكر الشرقي نزعت بصري عن محتويات الثوب السفلية ورفعته - بصري طبعا - إلى وجهها حيث قابلتني عينان زرقاوان واسعتان، فيهما قرأت ذلك المعنى الغامض الذي طالما حيرني كلما نظرت إلى عيون النساء في لندن، والذي يمكنك أن تقول - إذا أردت أن تحسم الأمر بسرعة - إنه نوع غير متوقع من الجرأة الحادة المقتحمة.

نعم هي جريئة جدا عيون إناث الغرب، جريئة وصريحة وحرة مع رجاء مني للقارئ ألا يشرع في الشمشمة بأنفه الشرقي باحثا في تلك الحرية الجريئة عن أية رائحة للجنس، فلرب نظرة حية متلصصة في عين ناعسة شرقية تثير من إيحاءات الجنس أضعاف ما تثيره تلك النظرات الجريئة في عيون بنات الغرب. فهي جرأة من نوع جرأة الرجل في استطلاع ما حوله من الأشياء وفي تفحصها وإطالة النظر إلى ما يثير اهتمامه منها، تلك الجرأة التي لا علاقة لها بالجنس من قريب أو بعيد. فلعلك تحتاج إلى أن تغوص في أعماق الريف الغربي لكي تعثر على تلك النظرة الشرقية المتلصصة في عيون البنات، تحت ظن منهن بأن تلك النظرات العصرية المقتحمة شيء يتنافى مع أدب الأنثى أو حتى مع شرفها.

ومن حقيبة يدها أخرجت الفتاة علبة سجائر كنج سايز، ومن العلبة أخرجت سيجارة رشقتها - عقبال الحبايب - بين شفتيها، وسحابة من دخان عاطر غادرت صدرها وتسللت إلى صدري لتداعب الشعب الهوائية الدقيقة في رئتي. فلو أن شيئا من ذلك حدث في ترام القاهرة لربما سرى ذلك الدخان في نخاعي الشوكي حتى وصل إلى أصابع قدمي، متسببا في صدمة غير متعمدة من حذائي لحذاء السيدة تحت الكرسي، على سبيل رد الفعل المنعكس الناشئ عن فكرة خاصة بشأن الأنثى التي تتعاطى الكيف في مكان عام.

لكن منظر هذه المدخنة السكسونية كان مختلفا تماما، وما استطعت أن أقرأ في تلافيف الدخان المتماوج بيننا أي شيء غير ما أقرؤه في الدخان المنبعث من فم ذكر خرمان. بنفس البساطة التي أعالج بها سيجارتي تعالج هي سيجارتها، بأصبعين طويلتين مخضبتين بمزيج من المانيكير وصفرة النيكوتين.

هي اشتاقت للسيجارة فأشعلتها، ماذا في ذلك؟ ولماذا يكون من حقي - أنا الذكر - أن أنفخ دخاني في وجهها دون أن يكون لها حق الرد بنفخة مماثلة؛ منطق معقول بغير شك وإن كنت أرجو ألا تستنتج منه إنني أُشجّع الحريم على التدخين في الأماكن العامة أو في أي مكان آخر، فلا شك أن مدخنة شرهة من هذا

النوع سوف تنخرط كل صباح في نوبة من السعال والبصاق بصورة مزعجة لزوجها، بل ومزعجة لصديقها إذا تصادف وجوده في تلك الساعة المبكرة.

ومن خلال الدخان رأيت في العيون الجريئة نظرة أقرب إلى أن تكون زغرة، إذ طال تفرسي في وجهها بما أوقعها فريسة للظنون، متوهمة إنني أرمي بنظراتي المتطفلة إلى أكثر من الدراسة الباردة لما هو متمثل فيها من نموذج للأنثى البشرية المعاصرة في شمال غرب أوروبا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القبلة الحلال

في المترو قبالتي شاب وفتاة يتبادلان حديثا لم أفهم منه للأسف حرفا واحدا. فقد كنت محتاجا إلى أن أحضر إلى لندن لكي أكتشف أن الإنجليز لا يعرفون الإنجليزية، أو على الأقل لا يعرفون الإنجليزية التي أعرفها أنا. عشرات من التعبيرات الدارجة التي لا يلزمك لكي تفهمها أن تكون إنجليزيا فحسب بل وأن تكون جاهلا أيضا. بالإضافة إلى ذلك الموقف الغريب الذي يتخذونه من حروفهم، معتقدين إنها قد صنعت لتؤكل لا لتنطق! فلعلهما أشفقا عليّ من عدم الفهم - ذلك الشاب وفتاته - وقررا أن يتكلما باللغة التي لابد أن أفهمها مهما كنت غير إنجليزي، إذ طوق الشاب خصر صديقته بذراعه وضمها إليه وأطبق بشفتيه على شفتيها، وهات يا بوس! أصارحك القول بأنني لم أصدق عيني في أول الأمر، ولذلك أخرجت منديلا أمسح به نظارتي قبل أن ألقي نظرة ثانية. وتلك النظرة الجديدة أكدت لي نفس الشيء، إنه ليس من شك في أن هذا الولد يقبّل هذه البنت، وإنه إذا كانت بينهما مباراة في عدد القبلات فالبنت هي الغالبة طبعا! علنا يمارسان أمامي وأمام الجميع هذا العمل الذي نسميه في القاهرة بالفعل الفاضح ونعاقب عليه بالحبس مع الشغل، تلك العقوبة التي لا أظن إنها سوف تطبق بالنسبة لعاشقين من هذا النوع الجريء. فلكي تطبق عليهما يجب أن يؤخذا أولا إلى القسم ثم إلى المحكمة، وهو ما يستبعد حدوثه بسبب أنهما سيؤخذان قبل ذلك في أغلب الظن إلى المستشفى وهذا إذا لم يموتا في الطريق إليه متأثرين بمئات الجراح التي ألحقتها بهما عشرات الأيدي التقية الطاهرة.

لذلك رحت أتلفت حولي إلى وجوه الركاب لكي أعرف وقع الأمر عليهم، ولكي أرى ما هي الاجراءات التي يزمعون اتخاذها وفقا للطريقة البريطانية، فوالله يا أخي - والله! - ما طرفت لواحد منهم عين ولا اهتزت في دماغه شعرة. كأنما هذا الشاب لا يقبل الفتاة وإنما يكلمها في السياسة مع تأييده التام للحكومة لا للمعارضة! لا أحد في العربة كلها همه الأمر سواي، الأمر الذي جعلني أنزع بصري عنهما بسرعة وأشيح بوجهي (لاحظ احمراره) مخافة أن تطول حملقتي إلى القبلة فأكون أنا وفقا للتقاليد المحلية مرتكبا لجريمة الفعل الفاضح. وبانتهاء تلك القبلة (50 ثانية) عادا يدردشان وكأن شيئا لم يكن، نحو من دقيقة كانت كافية فيما يبدو لفوران العاطفة من جديد فإذا بهما مرة أخرى يتلاحمان، وهات يا بوس!

فيبدو أن القبلة البشرية قد فقدت في المجتمع الغربي كل ما يحيط بها في المجتمع الشرقي من شحنات أخلاقية، وأضحت مجرد ظاهرة بيولوجية مثل تناول الطعام. وبما أن هذين الشابين أصغر سنا من أن يكونا زوجين أو حتى خطيبين، فيبدو أن الجنس كله قد صار تلك الظاهرة البيولوجية التي لا دخل لها بفلسفة الأخلاق. ولا شك أن هذا أمر غريب الحدوث في مجتمع يفترض فيه إنه مسيحي، وتعاليم المسيحية كما تعرف الجنس كله بالنجاسة حتى في حدود الزواج، غير متحملة إياه إلا بوصفه شرا لابد منه لبقاء النوع، تماما كالإخراج

(الفسيولوجي لا السينمائي!) الذي هو شر بد منه لبقاء الفرد. ولكن المسيحية فيما يبدو قد انزوت في المكان الوحيد المتاح لها في أوروبا الصناعية وهو الكنائس، جالسة في صبر طيب تنتظر زوار يوم الأحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الكنيسة الخاوية

وهم للأسف ليسوا كثيرين أولئك الزوار، إذ تعبت ذات صباح فجلست على أول دكة قابلتني، وكانت الدكة بالمصادفة بالقرب من باب كنيسة والوقت صباح الأحد. هناك جلست شاكرا تلك المصادفة التي ستتيح لي فرصة الفرجة على أتقياء الإنجليز وخاصة إذا كانوا تقيات. فلا شك إنه مما يفيدني أن آخذ فكرة عن العلاقة بين طول فستان البنت ودرجة تقواها، وعن الوضع الحقيقي للميني والميكرو في فلسفة الكنيسة البريطانية الحديثة.

لكنني للأسف لم أر أي شيء. نصف ساعة كاملة مضى عليّ هناك وما من تقي دخل إلى الكنيسة أو تقية خرجت منها، كأن هذه الكنيسة ليست كنيسة وكأن اليوم ليس يوم أحد. وقسيس ضئيل الجسم برز عند الباب وراح يتلفت حوله، أحمر الوجه وديع السمات وفي نظراته معنى من الشعور بالإحباط. هنا وهناك يتلفت حتى استقر بصره عليّ، ومدى لحظة خيل إليّ أنني رأيت في عينيه نظرة مناشدة. فخطر لي أن أجبر بخاطره وأنهض للصلاة، لكنني تذكرت أنني سوف أخطئ لا محالة في أداء الطقوس، فيكتشف الرجل أمري ويظن إنني أرمي إلى السخرية منه، وأكون بذلك قد أسأت إليه وأنا الذي ما رميت إلى شيء سوى الإحسان. فهو معذور بغير شك ذلك القسيس الآخر الذي قرأت ذات يوم إنه ألحق بكنيسته فرقة من موسيقى الجاز على أمل أن تغري الشباب بالحضور إلى الكنيسة حيث يجمعون بين متعتي الصلاة والرقص، تلك التجربة التي أميل إلى الظن بأنها قد فشلت بسبب ما لابد أن الشباب قد عانوه من الحرج وهم يرقصون تحت تمثال المسيح المصلوب.

فلا شك إنها محنة يعانيها رجال الدين في إنجلترا القرن العشرين، حيث زال آخر أثر للأبرار والمتطهرين الذين كانوا يقتلون الرجل بسبب أصغر شبهة توحى بأنه ليس متطهرا مثلهم. فإذا استمرت الأمور تسير في هذا الاتجاه فلن أستبعد أن يأتي يوم تحذو فيه الكنيسة الإنجليزية حذو سائر المؤسسات هناك، وذلك بأن تقفل أبوابها في أيام الأحد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

السماء المباصقة

وأنا أعرف لماذا كف الإنجليز عن التطلع إلى السماء، وذلك لأنك لن تجد منظرا أبغض من منظر السماء الإنجليزية! خيمة من السحب الرمادية تخيّم طول الوقت على سماء لندن، كئيبة مقبضة تملأ النفس بكراهيتها وكراهية الحياة كلها.. وفجأة يتحول اللون الرمادي إلى ما يشبه اللون الأسود، وتدوى طبول الرعد ويبدأ المطر يتساقط، وأرجو أن تكون قد ابتسمت عند كلمة «يتساقط» باعتبارها نكتة! فكلمة يتساقط توحي بشيء من الإيقاع اللطيف الذي يقترن بأمطارنا، أما هنا في لندن فهو يهطل وينهمر وينسكب ويندلق إلى آخر ما يخطر لك من الأفعال المغرقة.

فأقل ما يوصف به إنه مهين للكرامة البشرية، ذلك المطر الإنجليزي الوغد. كأن السماء تبول على الأرض أو كأنها تريد إعلان رأيها في الجنس البشري ببصقة كبيرة مركزة. فلا عجب أن ابتدع الإنجليز ذلك التعبير عن السماء التي تمطر قططا وكلابا، وما اختاروا في أغلب الظن تلك الحيوانات اللطيفة إلا احتراما لأسماع العيال. فهي في الحقيقة تمطر ثعابين وعقارب وحلاليف وتيوس!

ورياح مثلجة تعصف حولي وتنفذ كالسم في عظامي، أمشير المصري نفسه لا يُعد شيئا بجانب هذا الأغسطس الإنجليزي. فلابد أن أجلس ذات يوم لكي أكتب بحثا عن العوامل السيكوطقسية الكامنة وراء انتشار الإنجليز في الأرض وتكوينهم للإمبراطورية. هم كانوا يريدون الخلاص بأية طريقة من جو بلادهم المنحط ولعلهم ما كانوا يطلقون رصاصة واحدة لو وافق أصحاب القارات المشمسة على منحهم تأشيرة دخول!

فلو طاوعت نفسي المصرية المشمسة لحبست نفسي في حجرتي وعدت إلى القاهرة لكي أكتب مقالا واحدا عن الفندق الإنجليزي! لكنني بالطبع يجب أن أرى لندن، والحمد لله أن الفلوس التي في جيبي تسمح لي بشراء شمسية مستعملة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخضرة الخضراء

شعور بالعباطة التامة ساورني حيث سرت في شهر أغسطس رافعا فوق رأسي تلك المظلة السوداء المضحكة، تحت تلك الخيمة الرمادية المقبضة. وشعور آخر بالفتنة إزاء الخضرة الخضراء في حديقة هايد بارك، التي هي نتيجة الحمّامات السماوية المتواصلة منذ قرون طويلة. وحدي هناك حيث أن اليوم ليس من أيام الأحد، ورقعات من الحشائش الخضراء - كم هي خضراء! تترامى أمامي إلى مدى الشوف، محدودة هنا وهناك بكتل خرافية من الشجر الأخضر العتيق. ستمائة وأربعون فدانا إنجليزيا كما يقول لي الكتاب السياحي الصغير، ولذلك وصفها السياسي البريطاني وليام بت بأنها رئة لندن، ذلك التعبير الذي لا أدرى لماذا تصر على ترديده كافة الكتب السياحية، وربما كان ذلك لما فيه من ابتذال يصل به إلى درجة الصدق التام. فبغير هايد بارك وإخوتها من حدائق لندن لاختنق الناس وسط دخان المصانع المحبوس تحت تلك الخيمة الجاثمة على المدينة.

ومن جماع تلك الخضرة الخضراء وذلك الاتساع الرهيب في تلك الحديقة الفذة ينشأ في نفس المرء إحساس لا مفر منه بالضخامة والجلال، وإحساس لا مفر منه هو الآخر بالمرارة. إذ يخيل للأذن المرهفة أنها تميز في حفيف الرياح الباردة عبر الحشائش وبين أغصان الشجر شيئا كالأنين، لآلاف الأرواح التعسة التي طلعت ذات يوم في كل قارة من القارات الخمس أمام بنادق المستعمرين المتعطشين للدماء، ولأرواح كثير من الإنجليز أيضا. إذ كانت هايد بارك ذات يوم - كما تقول الكتب السياحية - ميدانا للمبارزة بين المأفونين من النبلاء، ومباءة للسفاحين وقاطعي الطريق، ومصبا للعنات الرهبان الذين كانت الحديقة موقوفة عليهم حتى انتزعها هنري الثامن ضمن ما انتزع منهم بقصد قطع دابرهم. غير أن الملكة كارولين - زوجة جورج الثالث - ما لبثت كما يحكون أن طهرتها وحولتها من غابة إلى حديقة، في الأثناء التي كان زوجها مشغولا فيها بقمع الثورة الأمريكية توطئة لأن يجن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عصافير الليل

عند ذكر هايد بارك سوف يتجـه ذهنك بالطبع - أنا عارف ذهنك كويس! - إلى ما ترتبط به تلك الحديقة في جرائدنا من حرية جنسية تتفاوت درجاتها وفقا لمزاج رئيس التحرير. فلعله مما يفجعك أن تعلم أنني ذرعت هايد بارك أكثر من صباح دون أن أرى أي نوع من القبلات - لا يا ربي رأيت ذات صباح قبلة واحدة خاطفة! - فلعل السبب في ذلك أن الناس يكونون في ذلك الوقت في أعمالهم، أو لعل التقبيل الصباحي مفضل هناك في حديقة ريجنت، حيث لمحت في نهاية الحشائش الخضراء المترامية شخصا راقدا هناك ثم استوى جالسا فاتضح إنه ليس شخصا وإنما شخصان!

غير أن الموقف يبدأ في التحسن بالطبع حين يذبل ضوء النهار، إذ سمعت ذات يوم بعد الغروب - هناك حيث جلست على كرسي طويل من القماش إيجاره بالنهار تسع بنسات - صوت زقزقة لعصفور سيء الخلق بدليل تأخره في النوم إلى ذلك الوقت، ثم تبين لي أنها طرقعة لقبلة بين شبحين يجلسان غير بعيد مني على مقعدين متلاصقين بالدرجة المناسبة. فلربما كان التقبيل الليلي هناك راجعا إلى العوامل الاقتصادية البحتة، باعتبار أن القبلة مهما كان نوعها - ولاسيما بعد تخفيض الإسترليني - لا يمكن أن تساوى 18 بنسا!

ولقد كان يسرني أن أمكث هناك بعض الوقت لكي أرى كيف تتطور الأمور بعد حلول الظلام الكامل، ولكنك تلاحظ إنه قد مضى ربع ساعة من الزمان قبل أن ينزل أي نوع من المطر! وتحت ذلك المطر اللندني الذي انهمر فجأة كان من الصعب عليّ أن أرابط في الحديقة مهما بلغ نبل ما عندي من مقاصد الاستكشاف. وحتى لو تحديت الأمطار وبقيت، فلا شك أن منظري حيث أجلس هناك تحت الشمسية لن يكون منظرا مريحا للرأي العام اللندني خاصة أنا لا أُقبّل أحدا!! سوف يظنون أنني مجنون هارب من مستشفى المجاذيب أو عاقل في طريقي إليه، أو أنني «توم» بصاص يتنكر تحت اسم محمد، أو أنني لص انتظر لحظة انسجام بين زوج من العشاق لكي أسرق قطعة من ثيابهما، وهذا بالطبع ما لم أكن رجلا من بقايا المتطهرين يفكر في ذبح المذكورين لكي يكسب شيئا من الثواب.

ومهما كان من أمر - ومهما اشتد الظلام - فلست أظن إنه كان يوجد هناك أي نوع من العشاق، مستبعدا جدا أن يحلو الحب للناس تحت ذلك المطر الوغد الذي لا أشك في أنه كفيل بإطفاء أشد العواطف التهابا. وحتى لو وجدت تلك العاطفة التي تصمد لذلك المطر فدواعي المحافظة على البقاء سوف تحتم على العاشق رفع الشمسية فوقه وفوق معشوقته، ولست أظن إنه موجود في لندن - بالرغم من كل ما فيها من التقاليع - ذلك العاشق الذي يطيب له أن يحب بيد واحدة.

مثل هذا التهور العاطفي قد كان يمكن أن يكون مفهوما لو لم تكن هناك أتوبيسات أو قطارات لها سقوف تظلل الحب من المطر، أما مع وجود تلك

التسهيلات العصرية فليس ثمة غير عاشقين مجنونين يختاران هايد بارك حيث يتحابان ويستحمان في وقت واحد. ولعل هذا هو السبب فيما قيل لي من إنه كان لهايد بارك سور أزالوه في العهد الأخير، فما لزوم ذلك السور بعد أن صارت لندن كلها هايد بارك!؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عواطف شرعية

حتى الكهول قد سرت إليهم عدوى: تلك القبلات العلنية في الأتوبيس كرهوا في أغلب الظن أن يظهروا أمام الناس أقل إقبالا على الحياة من أبنائهم. أكثر من كهل رأيته هناك يضم زوجته إليه ويقبلها، ليوهمها أو ليوهم الناس بأن حرارة حبهما أقوى من أن تطفئها رياح الزمن. وطفل لواحد من أولئك الكهول رأى ذلك المنظر فهب من مقعده، وخف إلى مكان الحادث بالسرعة الأوديبية المناسبة، مادا شفتيه نحو السيدة يطلب نصيبه من الوليمة!

ولقد سألت صديقا مصريا مقيما هنا عن السبب في هذه العواطف الشرعية المتطرفة فقال إنها لا تخرج عن كونها رشوة يقدمها الكهل لزوجته وهما عائدان إلى البيت بعد السهرة، كنوع من الساندويتشات العاطفية التي يطعمها إياها في الطريق، حتى إذا ما ضمهما المنزل لم تطلب العشاء! ومهما كان من أمر فأصارحك القول بأنني إزاء هذه المظاهرات التقبيلية بدأت أشعر بالخجل الشديد من نفسي، ماشي كده كالبجم دون أن أبوس أحدا! فلو أن - معي فلوسا لاستأجرت إحداهن لكي أقبلها كلما وجدت نفسي وسط الناس، لا لشيء والله سوى أن أثبت لأهل الغرب أنني لست أقل تقدما منهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الإنجليزي المذعور

عدة نظرات مختلسة شبه خائفة وجهها إليّ ركاب المترو قبل أن يسمح لمؤخرته بأن تستقر على المقعد بينهم، ذلك «الأفندي» الإنجليزي التقليدي بجاكته المحبوكة الرمادية المخططة، المفتوحة عن صديري رسمي ذي عدد من الأزرار يكفي خمسة صديريات، والقبعة المضحكة التي يبدو كأنه يحملها فوق رأسه أكثر منه يلبسها، وجريدة التايمز التي نشرها على حجره وتظاهر بالانهماك فيها كأنه لا يشعر بأحد مما حوله.

- البلد ذاهبة إلى الكلاب!

هكذا سمعته يقول في ذهنه السكسوني القديم، وأصارحك القول بأنني عذرته، بالرغم من علمي بأنني واحد من أولئك الكلاب!

فلا شك أن ذلك اللندني التعس قد فقد كل شعور بالحرية وبأنه في بيته وسط كل هذه الأفواج من السياح والمهاجرين، هناك حيث يجلس منفعصا بين عملاق أسود يذكرك بمحمد على كلاي، وهندي ذي عمامة بيضاء تتناقض مع سكسوكته المشذبة السوداء، وأنثى من أعماق أفريقيا في ثوبها الوطني المزركش بألوان صارخة في جرأة يحسد عليها كل منهما، وفتى فرنسي كث الشعر والسوالف يضع حذاءه على المقعد المقابل في وقاحة لاتينية مزعجة، وإيطالي يحكي لصاحبته وبأعلى صوته نكتا يبدو من طريقة ضحك الفتاة إنها بذيئة، ولا تلك الشلة من الأمريكان الذين يؤكدون - على مسمع من الأفندي التعس - أن قطارات الأنفاق في لندن لا تعدو كونها شيئا بدائيا إذا قورنت بأنفاق نيويورك. وهذا غير الألمان والصينيين واليابانيين والسنغال، والناطقين بالإنجليزية الذين وفدوا من كندا واستراليا وجنوب أفريقيا، ومن أقاليم بريطانيا مثل أهل الريف عند توافدهم على القاهرة في مولد السيدة، دعك بالطبع من المصري الذي جلس يحملق إليه برذالة غير مألوفة لكي يكتب عنه هذه السطور! فقد احتجت إلى أسبوع كامل لكي أكتشف أن نصف من أصطدم بهم في شوارع لندن ليسوا من أهلها، وأن لندن قد تحولت من عاصمة إمبراطورية إلى ما يشبه حديقة الحيوان عندنا يوم شم النسيم. فبعد أن قضى الإنجليز قرابة قرنين من الزمان وهم يبيعون منتجاتهم في كافة أنحاء الأرض بقوة السلاح، وبعد أن جرى للسلاح ما جرى، لم يجدوا أمامهم طريقة لاستثمار لندن سوى أن يؤجروها مفروشة! مثل النبيل الذي تهدده مصلحة الضرائب بإشهار إفلاسه فيزيل الأسلاك الشائكة من حول قصره ويحبس الكلاب المفترسة، ويفتح الأبواب لكل من يحب أن يتفرج على أمجاد التاريخ بعد أن يدفع للبواب ثمن التذكرة!

ومن المؤكد أن في لندن أشياء كثيرة تستحق أن يتفرج عليها الإنسان، حتى بعد أن نسقط من حسابنا تغيير حرس الملكة والبلطة الأثرية التي قطعت بها رأس آن بولين بأمر من زوجها هنري الثامن، بعد أن كان قد طلق في سبيلها زوجته الأولى كاترين مضطرا في ذلك إلى تحويل بريطانيا من الكاثوليكية إلى

البروتستانتية. ذلك أن لندن تتميز على سائر المدن السياحية بخاصية فريدة حقا، وهي أنها المدينة الوحيدة التي يمكنك أن ترى فيها - أيا كانت جنسيتك - شيئا كان ذات يوم عندك أنت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الحمام والقرصان

من البداية أحببت ميدان ترافلجار، وربما كان ذلك بسبب اسمه الذي هو تحريف غربي لكلمة الطرف الأغر بالعربية، فالميدان يتوسطه تمثال القرصان البريطاني نلسون الذي خطف رجله ذات يوم - منتزعا نفسه بسهولة غير متوقعة من أحضان ليدي هاملتون - إلى بحار إسبانيا لكي يحطم أسطولها في الموقعة التي يسمى الميدان باسمها. وقبل ذلك كان قد زارنا في أبوقير حيث تربص للقرصان الآخر نابليون، وبسرعة حطم أسطوله تاركا له الخيار بين أن يتجنس الجنسية المصرية ويُدفن عندما يموت في جبانة الشاطبي، أو أن يستأجر من أحد أبي أحمدات الأنفوشي قارب صيد يعود به إلى فرنسا بقيادة بحار فرنسي تمكن من أن ينفذ بجلده من مدافع نلسون وخرج إلى الشاطئ متعثرا وهو لا يدري في حجر رشيد.

غير أن الأغلب أنني أحببته بسبب الحمام، آلاف الحمائم التي تنتشر حول تمثال القرصان الكبير، أشبه بالنحل عندنا فوق عربة البلح الأمهات، ومئات السياح مجتمعون هناك في كل ساعة من ساعات النهار، حتى حين يهطل المطر وترتفع المظلات فوق الرؤوس، فيصبح الميدان - لو أنك نظرت إليه من فوق عمارة عالية - أشبه بحقل فسيح تغطيه نباتات عش الغراب، وهم طول الوقت عاكفون على إطعام الحمام بالحبوب التي يشترونها من كشك خاص في مقابل ستة بنسات للكيس، تلك البنسات التي لا أعرف هل تستقر في جيب صاحب الكشك أم في خزينة شركة مساهمة تحتكر حق إظهار العطف على حمام الطرف الأغر.

لا شك إنه منظر دافئ يوحي بما يعمر قلوب البشر من حب كامن لمخلوقات الله. ومن قدرة على اللهو البريء، حتى وإن دار كل ذلك الحب تحت تمثال القرصان الذي مات بعد أن قتل الآلاف، فلعله نوع من التكفير اللاشعوري عن ذنب قديم، اختيار هذا المكان بالذات لتجميع كل هذه الأفواج من الحمام المقدس.

والسائح من دول - أو السائحة - ينثر بعض الحبوب على كتفه فإذا بحمامة أو أكثر تطير من الأرض لتحط هناك وتأكل، ولربما بسط ذراعيه حوله وطلب إلى أصدقائه أن يغطوها بالحبوب مثل كتفيه، فسرعان ما يجتمع فوقه من الحمام ما يهيئ لك أنك لا تنظر إلى رجل وإنما إلى برج حمام ومن حوله تطرقع الكاميرات في أيدي أصدقائه، حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم أخرجوا تلك الصور وهم يتضاحكون ويصفقون ويقولون: أما كانوا يومين يا ولاد!

فهذا الميدان في عمومه صورة حلوة للتآخي بين جنس الإنسان وجنس الحمام، وللتآخي بين الإنسان والإنسان أيضا، بين عشرات الجنسيات التي تجتمع هناك بالآلاف كل يوم وليس ثمة خناقة واحدة تقع بين إنسان وآخر.

الكل يلـهـون ذلك اللـهـو البريء في إهمال مفرح لتمثال القرصان الذي مات، حيث يقف على قمة عموده في هيئة من الغطرسة التي لا تثير شيئا سوى السخرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

شيء من الفن

لكنني بالطبع لم أحضر إلى الطرف الأغر لمشاهدة الحمام، وإنما لأزور المعرض القومي القائم هناك، والذي يضم آلافا من الصور التي خلقتها ريشة عباقرة الفن في كافة بقاع الأرض.

هي متعة لا يمكنك أن تتصورها بغير الممارسة، متعة وقوفك مذهولا أمام تلك الأعمال الفذة التي سحرتك وهي مجرد صور رأيتها في كتب الفن. ولكنها متعة كان يجب عليّ للأسف أن أكبحها بحزم، فليس معقولا أن أقضي أسابيعي القليلة هنا في المعرض القومي وحده، فأنت تحتاج إلى شهر وأكثر لكي تستطيع أن تزعم أنك قد رأيت في ذلك المعرض كل شيء، وتحتاج إلى عمر كامل لتقول إنك قد استوعبت تفصيلات كل صورة على حدة.

ولذلك أُعدّت في المعرض مقاعد مريحة أمام مختلف الصور، ورُب أحد هواة الفن تمر به جالسا على أحد تلك المقاعد يحملق إلى صورة ما، وتتجول بالمعرض كله ثم تعود فتجده جالسا هناك كما كان!

لست بالطبع محتاجا إلى أن أفعل ذلك وأنا لست رساما محترفا ولا حتى هاويا، وما جلست على أي من تلك المقاعد إلا لأريح جسمي، ومخرجا علبة السجائر من جيبي قابلتني زغرة من الحارس الذي ذكرني بأن التدخين ممنوع، وهذا وإن كان مبررا بسبب الخوف على تلك الكنوز من الحريق، إلا إنه في الوقت نفسه مبرر كاف لأن أنهض وأغادر المعرض! فلست من ذلك الصنف الذي يقدر على الوقوف أمام عاريات فيلا سكويز وروبنز بغير شيء من موجات الدخان تتلاعب حول الأعطاف الفاتنة.

وعلى الرصيف خارج المعرض مررت برجل راكع على الأرض بطريقة تتنافى بعض الشيء مع فكرتي عن التقاليد السكسونية، وعلى براويز من أحجار الرصيف يرسم بالطباشير الملون صورا ساذجة، وكلمة بخط يده على أحد البراويز تقول إنه ليس شحاذا وإن كان لا يمانع في تقبل بعض الإكراميات تقديرا لفنه!

وبنسات كثيرة ترن حوله على الرصيف، فلعله يعود إلى بيته بثروة أكبر مما كان عند فان جوخ في الليلة التي قطع فيها أذنه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

ولد أم بنت

لست أدرى أن كانا إنجليزيين أو من السياح، هذان الشابان اللذان جلسا أمامي في المترو، متدثرين بما يشبه عفريتة العمال الزرقاء بدون أن يكونا من العمال، أحدهما ذو شعر طويل يتهدل على كتفيه، لولا آثار الحلاقة في ذقنه لظننت أنه أخته. والآخر على العكس منه قصير الشعر إلى درجة غريبة في منافاتها لروح العصر، الأمر الذي يقطع بأنه ينحدر من أسرة من غلاة المحافظين إن لم تكن من المتطهرين.

لأن الشباب الإنجليز كما رأيتهم لا يمكن أن يكونوا قد زاروا الحلاق منذ أخذوا الابتدائية، ومنهم من يستبعد أن يكون قد سمع بالحلاق أصلا، أقصر شعر على رأس لا يمكن أن يكون قد حلق منذ عهد حكومة المحافظين أو على الأقل - في الحالات النادرة - منذ دورة برلمانية كاملة.

خناقة كبيرة لابد إنها قد وقعت ذات يوم بين ذلك الكهل الإنجليزي الرسمي وبين أبنائه حين رفضوا الذهاب إلى الحلاق، أو حين تظاهروا بأنهم قد ذهبوا إليه ثم عادوا وشعرهم أطول من قبل، وبجانب الخناقة جدل هادئ - أو حاول الأب أن يجعله هادئا - حول الرجولة وطول الشعر، وهل تتمركز رجولة الشاب في شعره أم تشيع في مختلف أنحاء جسمه، كل ذلك وشعر الأولاد لا يبرح يطول ويطول، يوما بعد يوم يتهدل على أكتافهم ويلخبط الكهل المسكين بينهم وبين أختهم بربارة، فأدرك الرجل أنه أضعف من أن يخوض معركة ضد روح العصر كله وانهمك في جريدته متظاهرا بأنه لا يلحظ شيئا غريبا، وزيادة في التمويه على نفسه لا يرفض بين الحين والحين أن يدفع لهم بضعة شلنات تفي بأجر الحلاق الوهمي! وحسبه على سبيل العزاء أن خوفه على مستقبل الأولاد كان في غير محله، وأن شعورهم المتهدلة على أوراق الأسئلة لم تمنعهم كما كان يتوقع من النجاح في الامتحان عاما بعد عام.

وفجأة نظر كل من الشابين إلى الآخر في حنان وإذا بالشاب طويل الشعر يمد ذراعه لكي يحيط خصر صديقه، وإذا به يطبق عليه بالشفتين وهات يا بوس! صدمة شديدة أصابتني بطبيعة الحال، إذ لم أكن أتخيل أن الأمور يمكن أن تصل إلى هذا الحد حتى بعد ما قرأت عن رفع التحريم عن الشذوذ الجنسي بين «الراشدين» من الإنجليز! وبانتهاء القبلة (33 ثانية) نطق ذو الشعر الطويل للمرة الأولى مخاطبا صديقه بقوله يا ماري، فهل يمكن أن تكون الحال قد وصلت بهذا الولد إلى الدرجة التي تجعله يتخذ لنفسه اسم بنت؟ لكنه نطق فإذا له صوت ناعم رقيق، وبجولة متأنية في تضاريس جسمه وراء العفريتة الزرقاء - جولة بصرية طبعا - تأكد لي فعلا إنه بنت لا ولد، أي إنه لا طول الشعر ولا نوع الملابس أصبح يصلح هنا مقياسا للأنوثة والذكورة، ولو أن الأمور اطردت على هذا المنوال فلا أستبعد أن يأتي يوم تكون الطريقة الوحيدة فيه لمعرفة جنس الكائن من دول هي أن تنتظر حتى يدخل الحمام ثم تنظر إليه من ثقب الباب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فلسفة الشعر

حبيسا في الفندق بسبب تلك الأمطار الوضيعة التي تنهمر منذ ساعات، رحت أفكر في تلك الشعور المرسلة التي أصبحت موضة شبه رسمية لشبان العالم الحديث.

ومن السهل أن تلخص المشكلة بأن تصف أولئك الشبان طوال الشعر بالميوعة أو بالرقاعة، الأمر الذي لو صح لوجب تعليق لافتة في مطار لندن تقول للقادمين مرحبا بكم في عاصمة الرقاعة، ولوزعت أكثر من نشرة سياحية تقول يا رقعاء العالم اجتمعوا في لندن! ولكن الأمور لا تُحل بهذه السهولة، وإذا كنا هنا نصف الشباب طويل الشعر بالرقاعة فذلك لأنه لا يعبّر عن شيء سوى رغبته في التقليد الأعمى، أما إذا رأينا جيلا كاملا من الشباب الغربي يرسل شعره فجدير بنا أن نتردد قبل أن نستخدم تلك الكلمات الكبيرة العائمة عن الرقاعة والميوعة والتخنث إلى آخر ما في قاموسنا من الشتائم الخلقية، فليسوا رقعاء ولا مخنثين أولئك الآلاف من الشبان طوال الشعر الذين عرّضوا أنفسهم لهراوات البوليس وغازه المسيل للدموع وهم يهاجمون السفارة الأمريكية وهيلتون لندن، ولا أقر أنهم الفرنسيون الذين نصبوا المتاريس في شوارع باريس واحتلوا السوربون في سبيل قضية يؤمنون بها.

إنما هم يريدون أن يقولوا شيئا بتلك الشعور الطويلة وتلك الملابس التي توقع اللبس بين الذكر والأنثى. هم يبحثون كما يخيل إليّ عن مفهوم جديد للرجولة، كارهين أن تنحصر رجولة الرجل في شعر يحلقه أو صديري يزرره على صدره تحت جاكته كئيبة مخططة. ولعلهم كرهوا مفهوم الرجولة التقليدي كله وأرادوا أن يثبتوا أن شابا طويل الشعر يحتج على حرب فيتنام أحسن وأرجل من رجل قصير الشعر يشعلها.

لو أوتوا البلاغة الكافية لاحتجوا بالكلمات، لكنهم في زحام المشاعر المتلاطمة المنحشرة في عنق الزجاجة قنعوا مؤقتا بالاحتجاج بالشعر الطويل والملبس الغريب. هم ينكرون مبادئنا كلها نحن الكهول، وما شعرنا القصير وثيابنا المهندمة إلا رمز لتلك المبادئ. فلو أننا كنا نطيل شعرنا - نحن أبناء الجيل القديم - لحلق أولئك الشبان رؤوسهم زلبطة! ولو كنا نلبس العفاريت والميكرو جيبات للبسوا السموكن شبانا والملس شابات!

هم يحتقروننا ولهم والله عذرهم، بشعورنا الحليقة ورجولتنا المزورة نرسلهم إلى كافة بقاع الأرض ليقتلوا الناس وليموتوا، وشعارات كبيرة نرددها على أسماعهم عن حقوق الإنسان بدون تعريف دقيق لذلك الإنسان، هل هو الرجل الكادح في سبيل ساندويتش من الكلاب الساخنة أو الرجل البنكير الجالس يحصي نقودا تفوح منها رائحة الدماء والبارود، ومعابد ندعوهم إليها ليسمعوا صوت السماء، وما في سمائنا إلا طائفة من الشياطين الذرية تعوى وتخنق ترانيم الملائكة.

فأرضنا في الحقيقة في حال من الفوضى التي تثير في النفس كسلا شديدا عن التردد على صالون الحلاقة، ووالله لو عرفت - أنا الكهل - أن شعري سوف يتهدل لو أرسلته لفعلتها من زمان لكنني أعرف إنه سوف يرتفع إلى أعلى ويتشابك ويتعقد حتى يصبح رأسي مثل حقل من التين الشوكي، وبمثل هذا الشعر لن يكون لي نفع كبير في غير يوم يخطر لزوجتي فيـه أن تزحف السقف وتتلفت حولها باحثة عن رأس العبد فلا تجد سوى رأس العبد لله.!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

عصر الآلة

متعة ميكانيكية غامرة وأنا أدس نصف الكراون في ثقب الماكينة التي تبيع السجائر، وبينما أستخرج العلبة من المكان المخصص أسمع شخللة لطيفة لعدد من البنسات تتساقط في مكان آخر، وهي الفكة التي حسبتها الماكينة الخبيثة كحق تبقى لي من نصف الكراون! والتماسا لتلك المتعة الميكانيكية شربت أكثر من زجاجة كازوزة مع أنني لا أحب الكازوزة وأكلت أكثر من باكو شوكولاتة مع إنها توجع بطني، وذات مرة وضعت قطعة العملة المطلوبة في الثقب فإذا بها تنزل في الوعاء المخصص دون أن تقدم لي في مقابلها أي علبة، فالتقطت العملة وأودعتها في الثقب من جديد، وإذا بها تنزل لي في الوعاء المذكور مرة أخرى، كلما أودعتها نزلت لي وأنا لا أفهم لماذا يحدث ذلك، إلى أن ظهرت لي على لوحة خاصة كلمات كهربائية تقول لي: لا بيع! أي إنها - الماكينة - قد صبرت عليّ كل ذلك الوقت منتظرة أن أيأس وأنصرف فلما وجدتني لا أيأس لم تجد مفرا من إخطاري بتلك الكلمات أنها تعتذر عن البيع لسبب أو آخر!

فابتعدت عنها متلفتا حولي بالخجل المناسب من عباطتي، وحمدت الله على أنني قد رأيت تلك الكلمات وامتنعت عن مواصلة إيداع العملة ملحا في طلب العلبة. فلا يستبعد لو إنني واصلت إزعاج الماكينة بهذا الشكل أن تظهر لي على اللوحة كلمة تهزيء تزعجني بالرغم من إنها بالكهرباء!

فلست أدرى لماذا لا نستورد عندنا تلك الماكينات اللطيفة أو نصنعها، فلا شك أن ماكينة من هذا النوع سوف تدخل البهجة إلى أكثر من قلب مصري. وبالنسبة للكازوزة أعتقد أن تلك المتعة الأوتوماتيكية في الحصول على الزجاجة سوف تجعلك أقل انزعاجا عند وصولك في تجرعك للسائل إلى الصرصار الصغير السابح فيه. نعم نحن في حاجة إلى ذلك النوع من الماكينات في هذا الوقت الذي أكثرنا فيه من الحديث عن فنون التكنولوجي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مقاطع بيكاديلي

يخيل إليك أنهم قد خرجوا من صورة لسلفادور دالي، أولئك الشبان والشابات الذين يرابطون طول الوقت في ميدان بيكاديللي. حول العمود الذي يتوسط الميدان حاملا فوقه إيروس إله الحب، لامعا تحت الرذاذ المتساقط ومصوبا إلى الأبد سهمه إلى قلوب الناس.

ليس أغرب من ألوان ثيابهم إلا تفصيلها، متهدلو الشعور طبعا مع إضراب تام عن تمشيطها. على سلالم التمثال يترقصون أحيان ويتقصعون، وأحيانا يتمددون على البلاط في حالة من النيرفان الكاملة، وبنت تمد بوزها نحو صاحبها لتخطف منه قبلة لا يبدو أن أحدا منهما يريدها، توطئة لأن تسرح في الوجود حولها بنظرة طويلة فارغة. وهم في كل ذلك لا ينزعجون من آلاف العيون التي تتركز عليهم من المارة طول الوقت، ولا من الكاميرات السياحية التي لا تبرح تطرقع حولهم وترسل صورهم إلى كافة أنحاء الأرض. ولرب شاب منهم يرى الكاميرا مصوبة إليه فيضع يدا على خصره وأخرى على رأس ويتقصع مقلدا ممثلات السينما في أوضاع الإغراء. فهم سعداء فيما يبدو بهذا الاهتمام العالمي، ولو أن الناس انصرفوا عنهم وأهملوا أمرهم لتنهدوا في يأس وعادوا إلى بيوتهم. أكثر من مرة خطر لي أن أقترب منهم وأستفسر عن فلسفتهم في الحياة إن كانت لهم فلسفة، ولكن منظرهم العام أوحى لي بأن المسألة غير مأمونة العواقب، وأن محاورة طويلة بيننا قد تختتم في قسم الشرطة، وأنت تعرف نفوري من تلك المؤسسات حتى لو كانت في بيكاديللي، ولذلك اكتفيت بالسؤال عن أمرهم، وخرجت بعدد من الإجابات الممعنة في تناقضاتها.

فهناك رأي يقول بأنهم لا يخرجون عن كونهم شرذمة من العاملين والصيع والمقاطيع ومدمني المخدرات، وأنهم ما كانوا لينحدروا إلى هذه الصورة المزرية لولا حكومة متساهلة تشجع الناس على الانحلال باسم الحرية الفردية.

وهناك رأي آخر يرد إليهم شيئا من الكرامة، قائلا إنهم يمثلون نوعا من الإحياء لفلسفة الكلبيين الإغريق الذين ارتأوا أن ذروة الخير والسعادة هي أن تعيش كما تعيش كلاب الطريق. وهم قد بدأوا تطبيق هذه الفلسفة بتلك الملابس الغريبة التي تؤكد ثورتهم على كافة الرسميات التي تثقل كاهل الرجل العادي. أما عن العمل فلماذا يعملون في سبيل أن يربح سلفردج، ولماذا يكسبون إذا كان معظم كسبهم سيضيع في الضرائب التي تذهب إلى جيوب تجار السلاح؟ فهم وفقا لهذه النظرة يعبرون عن إحساس الضياع الذي يساور كافة أبناء القرن العشرين، ويرمزون إلى فشل نظام كامل في الاجتماع والاقتصاد والأخلاقيات، عماراته الشاهقة لا تبنى إلا لكى يقفز من فوقها الفقراء والمحرومون، والحب فيه لم يعد أكثر من تمثال من المعدن البارد الأصم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الآنسة المتجردة

مارا في الطريق بقبلة أطول من اللازم وفقا لمقاييس عصر السرعة، بين فتاة وشاب لا يمكن أن يكون حلق شعره منذ سنتين، رأيت على الحائط إعلانا عن عرض دولي للستربتيز في المكان الفلاني من حي سوهو، الأمر الذي دفعني - على سبيل رد الفعل المنعكس البسيط - إلى أن أمد يدي إلى جيبي لأخرج الخريطة. صحيح أن موضات المينى والميكرو لم تترك داعيا لهذا النوع من الفضول التشريحي - وخاصة إذا أخذنا في اعتبارنا تدخل النسمات التحتية العابثة بين حين وآخر. ولكنك تعرف أن شيئا لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب.

فبينما أنا أتفحص الخريطة معتمدا على نهر التايمز كفاصل بين جنوب لندن وشمالها، فوجئت بالمساحة الزرقاء التي تمثل النهر وقد تحولت إلى مجرى مياه حقيقي لا جغرافي، بسبب الأمطار اللعينة التي بدأت تتساقط فجأة على الخريطة وعليّ! فأدركت أنني في سعيي إلى العنوان المطلوب لن أصل إليه إلا وأنا في حال من البلل تجعلني أحوج من عارضات الستربتيز إلى خلع ثيابي.

فتنهدت ورددت الخريطة إلى جيبي، ورافعا المظلة المنحطة فوق رأسي سرت أغالب الغيظ بالتفكير في نظريتي السيكوطقسية الخاصة بمنشأ الإمبراطورية البريطانية، قائلا لنفسي إنه ما من رجل إنجليزي كان يفكر في تكوين تلك الإمبراطورية لو أتاح له جو بلاده التعس أن يخلع ثيابه لغرض ما غير تجفيفها!

وعلى أي حال ما أظنني كنت أستفيد كثيرا من فرجتي على الآنسة (حلوة الآنسة دي؟) المتجردة، فالنساء كلهن سواء حين يتجردن. ولعلهن ما اخترعن حيلة الثياب إلا لإيقاع الذكر في ذلك الوهم الخاطئ، أن هناك فرقا كبيرا بين فاطمة وماري، أو بين عيوشة ومونيك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الشيش المفقود

الأمطار السافلة تضرب زجاج نافذتي بغير رحمة، ونافذتي كما أسلفنا غير ذات شيش. مجرد زجاج يرتفع وينخفض وستارة من الكريتون تحجب منظري عن الآخرين إذا لم أكن ذا ميول استعراضية. ولذلك خطرت لي في اليوم الأول من وصولي أن أنتقل إلى فندق آخر، لم يمنعني من ذلك إلا ما تبينته في اليوم التالي من أن كل النوافذ في كل البيوت في لندن غير ذات شيش فيبدو أن الشيش بالنسبة لنوافذ العمارة مثل البواب بالنسبة للعمارة نفسها - نوع من الترف الذي لا تقدر عليه غير الدول النامية! وربما كان ذلك سبب أن الشيش شيء صنعه أهل المناطق الحارة لكي يتقوا به شر شمسهم المحرقة، الأمر الذي يكذبه ما رأيته في كثير من الأفلام من نوافذ في المكسيك والبرازيل غير ذات شيش. فيبدو أن الشيش شيء لا علاقة له بالجو بقدر ماله من علاقة بالحجاب، وأنه اختراع خاص البيوت التي يكره صاحبها أن تقع نظرة من الجيران على الإناث من أهل بيته.

فالستارة مهما كانت ثقيلة قد تنجح حين تنفرج - لهذا السبب أو ذاك - في فضح خصلة من شعر الزوجة أو البنت، أو قطاعا من كتفها الأيمن إذا تصادف أن كانت في قميص النوم، حتى إذا كانت ستارة عصرية من سيور البلاستيك، أما الشيش الخشبي فهو لا ينفتح إلا بفعل فاعل أو فاعلة، وليس ثمة رجل شرقي يعتقد أن زوجته أو ابنته يمكن أن تفعل أمرا كهذا - وذلك طبعا ما عدا الرجل الذي قام باختراع الشيش!

وشاب تهجم على حجرتي بالفندق ذات صباح، وبدون إحم ولا دستور توجه إلى النافذة فرفع زجاجها وخرج منها. وظننت بالطبع إنه إنسان تعس طُرد من عمله أو خانته زوجته مع أعز أصدقائه فقرر أن ينتحر مختارا نافذتي بالذات لكي يثير الريب حولي لغرض في نفسه. لكن الله قدر ولطف وتبين أنه لا يريد أن ينتحر بل أن يشتغل إذ اكتفى بالتشعلق في النافذة من الخارج مع إخراج خرقة ينظف بها الزجاج ويلمعه، كارها فيما يبدو أن أنظر من خلال الزجاج القاتم فتفوتني إحدى التفاصيل المهمة في الشارع اللندني.

فالنافذة الزجاجية وفقا لهذا الوصف قد أفادت بعض الناس بخلق أعمال خاصة لهم، وربما كانت قد أفادتني أنا صاحب النافذة وخاصة في ذلك الصباح الذي صحوت فيه وأنا في حجرة تحت الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

نوع من القطط

لأسباب أعتقد إنها تهمل - وهذا مبرر كاف لأن أخفيها عنك! - وجدت نفسي ذات ليلة - وللمرة الأولى في حياتي - نزيل تلك الحجرة في البدروم والذي يشرف من تحت إلى فوق على الشارع اللندني، ومن الثامنة إلى التاسعة صباحا - موعد ذهاب الناس إلى العمل - جلست أستمتع بالبانوراما المتحركة أمامي، تلك البانوراما التي يمكنك أن تتصور بهجتها في عصر الميني والميكرو!

فبينما أنا أحملق إلى تلك التسالي من خلال القضبان الحديدية للنافذة وجدت شيئا من الصعوبة في منع نفسي من أن أضحك لوحدي كالعبيط، متذكرا ما يشكو منه سكان البدرومات الإنجليزية من النظرات المتطفلة لما يسمونه «توم البصاص»، ذلك الشاب الذي يتعمد التلصص بالنظر إلى مجريات الأمور في تلك الحجرات الواطئة، خصوصا عندما يحل من الظلام ما يخفيه عن العيون وما يهيئ لسكان الحجرة أنه يخفيهم. إذ كنت أنا - في وقفتي تلك أنظر إلى مواكب الميني جوب العابرة - أول توم يتبصص على الناس من الداخل إلى الخارج!

لكن ذلك الموكب البشري ما لبث أن هدأ بذهاب الناس إلى أعمالهم، ومن خلال القضبان الحديدية قابلتني عينان خضراوان براقتان، في وجه مستدير لقطة بريطانية تقف على رصيف الشارع، كثيفة الشعر نافشة الذيل منغبشة اللون ملظلظة بشدة، قلت لها بسبس فأجابتني من حيث وقفت على الرصيف قائلة نو، الأمر الذي طمأنني إلى أن لغة القطط في لندن هي نفس لغتها في القاهرة، وأنه بالرغم من اللكنة الخفيفة التي تشوب نونوة هذه القطة فلن يكون عسيرا عليّ أن أتفاهم معها، ولربما كان تفاهمي معها أيسر من تفاهمي مع أصحابها الذين لا أفهم - بالرغم من إجادتي التامة للغتهم المكتوبة - شيئا مما يقولون. وقفزة رشيقة نقلت القطة من الرصيف إلى حافة النافذة، تمسحت بجنبها لحظة في أحد القضبان، ثم وثبت إلى أرض الحجرة تتشمم الدنيا حولها، رافعة في خلال تجوالها ذنبها النافش الذي قال لي إنها ليست قطة وإنما قط!

- ناو!

هكذا قال ضيفي وهو يرفع نحوي نظرة خضراء مناشدة، فتذكرت علبة الفراخ المحفوظة التي كنت قد اشتريتها لزوم الغداء بكذا شلن وسنت. ومن العلبة أخرجت قطعة نسيرة وضعتها له على الأرض فوق ورقة من الملحق الاقتصادي لجريدة التايمز، حيث إنه من المستبعد أن تكون هناك فائدة كبيرة لذلك الملحق بالنسبة لرجل يسكن تحت مستوى التيمز. (لاحظ الفرق بين التايمز والتيمز لكيلا تتورط كعادتك في ذلك الخلط المضحك بين الكلمتين).

في وقار لا لزوم له في ذلك الموقف تقدم القط من قطعة الفراخ، تشممها لحظة بأنفه السكسوني الحساس ثم رفع بصره نحوي قائلا: ناو، الأمر الذي فهمت منه إنه إما يشك في الدوافع الكامنة وراء هذا الكرم غير المتوقع من ناحيتي، وإما - وهذا مستبعد طبعا - لا يحب الفراخ.

- ماذا تعنى بقولك ناو؟ لماذا لا تأكل؟

هكذا سألته بلغته الإنجليزية فلم يزد على قوله ناو، وكان في لهجته هذه المرة نبرة عتاب لم أفهم لها سببا: ثم أدنى أنفه من النسيرة وشمها من جديد، وبهيئة من يُقبل على مغامرة خطيرة قضم منها بأسنانه فتفوتة صغيرة، ولاكها حينا في فمه ثم ابتلعها بصعوبة، متوجسا في أغلب الظن من أن أكون قد دسست له السم في الطعام في ذات نزوة وطنية رسبت في نفسي من أيام الاحتلال.

- كل ما تخافش! كل! اطفح!

فقضم فتفوتة أخرى، وهذه لم يبتلعها بل بصقها، وهز رأسه بقوة لكي يطرد جزءا منها علق بشعرة من شاربه. ثم رفع يده إلى فمه وحكه لكي يزيل عنه كافة الآثار، وابتعد عن المكان كله وهو يجعر قائلا ناو! فهو إذن - قطعا وجزما - لا يحب الفراخ أو على الأقل لا يحب الفراخ المعلبة، وإذا كان قد أكل تلك الفتفوتة فما ذلك إلا على سبيل جبران الخاطر ورغبة من ناحيته في ألا يكسفني. وبناو أخرى توديعية قفز إلى حافة النافذة ومنها إلى الرصيف، وابتعد وهو لايزال يهز رأسه لكي يطرد عن شاربه. وعن ذاكرته أيضا - كل ما تبقى من آثار الفراخ التي سوف أتغدى بها أنا، ولعله وهو يفعل ذلك ترحم على الأيام الحلوة القديمة حين كانت الفراخ فراخا، وتصعب في حسرة على هذا التدهور المتواصل في المستوى السياحي.

فراقبته يبتعد وأنا أتصعب بدوري آسفا على هذا الترفه - المرضي بغير شك - الذي وصل إليه القط البريطاني، وهو بالطبع مسئولية التاجر البريطاني الجشع، الذي في تصيده للشلنات والبنسات بكافة الطرق عمد إلى تلك الحيلة الدنيئة التي رأيتها على أحد الرفوف في أحد محلات البقالة، ممثلة في علبة تحتوي على غذاء خاص للقطط مكون كما تقول العلبة من توليفة نادرة من شحم الخنزير ولحم الدجاج المفروم. فلماذا والحال كذلك لا يعزف القط الإنجليزي الوغد عن الغدوة التي كنت أنا أعتبرها نوعا من الرفاهية حيث أقيم تحت الأرض؟

فلففت النسيرة في الملحق الاقتصادي وألقيت بالاثنين في صندوق الزبالة، قائلا لنفسي إنه ليس من الغريب أن يصل القط الإنجليزي إلى هذا الحال بعد قرنين من الزمان قضاهما الرجل الإنجليزي في عض عباد الله وخربشتهم في أربعة أركان الأرض. وعلى أي حال فالحمد لله على أنني في لندن لا في نيويورك، فعند المقارنة بين درجات الثراء ما أظنني كنت أنجح في استمالة أي قط هناك ما لم أعزمه على الغداء في هيلتون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحمام المقدس

وحمام لندن لا يقل فيما يبدو ألاطة وتبطرا عن قططها، وخذ مثلا تلك الحمامة التي سارت على الرصيف أمامي حيث جلست مرة أخرى على الدكة بالقرب من الكنيسة. سائرة بتلك الطمأنينة التي تميز حمام لندن تقدمت منى، وذكرت أن في جيبي فزدقة تبقت هناك من أيام الكويت فأخرجتها وقشرتها وألقيت لها بها، تشممتها في ارتياب ثم تركتها وابتعدت مرفوعة الرأس في كبرياء. أي إنه حتى الفزدق الذي احتجت في سبيل أكله إلى أن أسافر إلى الكويت قد صار هو الآخر - مثل نسيرة الفراخ - من الأشياء التي تزدريها حيوانات لندن المتعنطزة.

وبالنسبة لهذا الحمام المتفشي في لندن أعجب لماذا يرفض الإنجليز - وأهل الغرب عامة - أكل الحمام باعتباره لونا همجيا من الوحشية، فما الفرق بين حمامة أذبحها وبين دجاجة مما يذبحون، أو ديك رومي بمناسبة عيد الميلاد، أو ثور عظيم لزوم تعبئته في العلب؟ لا فرق بالطبع، ولو أن كل هذا الحمام عندنا في شوارع القاهرة لامتلأ فريزر ثلاجتي إلى حد الانفجار، ولأريقت أنهار من السمن لزوم الحشو والتحمير! لكن الحكاية إذا وصلت إلى طقوس الغذاء فيبدو أن الشيء الوحيد الذي يجب وضعه في الفريزر هو المنطق! فأنا وأنت لا نأكل الضفادع التي يموت فيها الفرنسيون، وهاهم الإنجليز يأكلون الخنزير ويرفضون أكل الحمام، ورب رجل هندي يسقط على أرض بيهار من فرط الجوع ليلفظ روحه شيئا فشيئا وغير بعيد منه بقرة ملظلظة تتبختر في خيلاء ويكاد شحمها من فرط سمنتها يبظ من خلال جلدها المقدس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إتفضل معانا

فلعله يهمك أن تعلم أن غذائي الرئيس كان يقوم على المعلبات، دعك من المرات التي قلدت فيها صعاليك الإنجليز بأكل السمك والتشبس. فأنت تعرف صعوبة الحصول على العملة الصعبة بالنسبة لرجل مغترب، وخاصة بالنسبة لرجل يعاني - وهو غير مغترب - كل ما تعرفه من الصعوبة في الحصول على العملة السهلة!

والمعلبات في لندن وفي كل بلاد الغرب شيء يوجد في كافة محلات البقالة من الأرض إلى السقف، مئات من الرفوف التي تحمل آلافا من العلب التي تحوى كل ما يخطر على بالك من أنواع اللحوم والطيور والأسماك والخضر والفاكهة. فهي شيء لا غنى عنه لأولئك الناس الذين يعرفون قيمة الوقت، والذين ما كانوا لينجزوا كل ما أنجزوا لو أن ربة البيت تضيع سحابة اليوم في خرط البصل وعصر الطماطم وخلط التقلية وتسبيك الأكل على النار، وكل ذلك تمهيد لما يضيع من وقت الأفندي في التهام الوجبة المسبكة توطئة لأن يرتمى على الفراش ساعتين لزوم الهضم! إنه لمنظر ممتع حقا، منظر الإناث وهن يتجولن بين الرفوف دافعات أمامهن تلك العربات الصغيرة التي لابد أنك رأيتها في السينما، يُحمّلنها بكل ما لذ وطاب من تموين البيت. فلشد ما تمنيت أن أحذو حذوهن بدفع إحدى تلك العربات، ولكن منظري بغير شك سوف يكون شديد العباطة عند مقارنة ما في عربتي - وفقا لإمكانياتي - مع ما في سائر العربات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

هل هي أنثى؟

نعم هناك شيء غريب في عيون أنثى الغرب، هكذا قلت لنفسي من جديد حيث جلست أتفحص ذلك الزوج الجديد من العيون الزرق - أو قل هو شيء مختلف عن العيون الشرقية - ولذلك بدا غريبا لذكر شرقي مثلي.

قلت قبل ذلك إنه نوع من الجرأة والاقتحام وكنت فيما أظن صادقا، ولكن المسألة ليست بهذه السهولة، فهذه الجرأة ليست إلا نتيجة لسبب آخر، وذلك السبب هو الذي يجب أن أتوصل إليه لكي أهتدى إلى سر ذلك الشيء الغريب أو المختلف في العيون الحرة الزرقاء.

ومرة أخرى أغض البصر مخافة أن تظن البنت بي الظنون، فيقع - بصري - على الفخذين الجريئين في الميكرو جوب الصفيق. فبينما أنا أتأمل الموقف هناك بعين الدارس المتأني، ناهلا من تلك النكهة الحراقة للأنوثة البيضاء الصارخة، ومضت الفكرة في دماغي مثل وميض الشهاب، ورددت البصر إلى العيون الجريئة الزرقاء لكي أرى فيهما السر الغريب وقد كتب هناك بحروف من النيون الساطع: أن الحكاية بمنتهى الاختصار أن هذه البنت المسكينة عارية الساقين ليس عندها أي ذرة من الشعور بأنوثتها!

تلك النظرات الجريئة المقتحمة ليست نظرات بنت وإنما نظرات ولد، أو قل نظرات كائن نسي من زمان أن كان بنتا أو لدا، نهائيا نسيت أنثى الغرب أنها أنثى، بعد عديد من مراحل التطور التي أزالت من روحها كل شعور بأنها تختلف في أي شيء مختلف عن الرجل. فلعلها ما لبست هذا الثوب - أو على الأصح خلعته! - إلا خوفا من أن أتردى بدوري - أنا الذكر البشري - في تلك الهاوية من نسيان حقيقة أنوثتها!

وتلك الجرأة البصرية ليست إلا أحد مقومات ما أميل إلى تسميته بالحرية الحركية العامة التي تميز أنثى الغرب عن أنثى الشرق. فلابد أنك لاحظت تلك الجلسة العاقلة الملمومة للأنثى الشرقية، مع وضع ثابت معلوم لكل عضو من أعضائها، كل حركة من حركتها بأناة ورزانة وحساب حتى لا تخرج عن المفهوم العام للحشمة الجديرة بالأنثى. فهي أنثى قبل أن تكون إنسانا، ولربما خالط شعورها بأنوثتها شعور بالنقص لذلك السبب، وإحساس بفكرة «العورة» يشيع في كل كيانها. كأنما كان الله تعالى يريد أن يعاقبها حين رفض أن يخلقها رجلا، وحين أرسلها في تلك الصورة الناقصة لكي تسير إلى الأبد في دروب الحياة محمرة الوجه مطرقة الرأس وسط آلاف العيون الساخرة أحيانا والزانية دائما!

كل ذلك تخلصت منه الأنثى الغربية تماما، ومن كافة الطقوس الحركية التي تفرضها سائر المجتمعات على أنثى البشر. وهو بغير شك كسب كبير لها، ذلك الشعور الجديد بإنسانيتها من قبل أنوثتها، وتلك الشخصية العريضة المنطلقة مثل شخصية الرجل. وهو في الوقت نفسه كسب للأطفال الذين تشرف على تربيتهم، والذين يتشربون يوما بعد يوم بتلك الشخصية العريضة المتفتحة،

لكنني أتردد كثيرا قبل أن أقول إنـه كسب للرجل الغربي، الذي لا أشك في أنه يحتاج إلى قدر كبير من النبش المجهد في طبقات إنسانيتها الكثيفة قبل أن يصل إلى الأنثى الرابضة في أعماقها!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشحاذ الصغير

ولد صغير تقدم نحوى ذات يوم في الطريق الهادئ وقال بلهجة آمرة!

ـ اديني ستة بنس!

فخيل إليّ مدى! لحظة - بسبب تلك اللهجة الآمرة - أنه أحد قطاع الطرق، وأن يده المدسوسة في جيبه تقبض على زناد مسدس، ولكنني ما لبثت بالطبع أن استبعدت تلك الفكرة استنادا إلى أنه من غير الممكن أن يبدأ قطع الطرق في تلك السن المبكرة حتى إذا كان القاطع إنجليزيا، ولا هو شحاذ بدليل ملابسه النظيفة الغالية - أغلى من ملابسي أنا على الأقل، فهو لا يخرج عن كونه طفلا شقيا بدد مصروفه في الهلس ويعرف أن أمه سوف ترفض أن تعطيه مصروفا آخر.

من المحتمل طبعا أن يكون قد فقس بغريزته الصبيانية الحادة جنسيتي العربية ومن ثم أراد أن ينتفع بما يمكن أن يكون قد قرأ هنا وهناك عما يتصف به العرب من الكرم والمروءة. واحتمال آخر هو الأقرب إلى الصحة، وهو أن العملة المعدنية كانت تشخلل في جيب البنطلون بشكل لافت للنظر حقا، الأمر الذي أوحى إلى الولد بثرائي غير عالم أن ثروتي كلها فكة!

- عاوز ايه؟

هكذا سألته لكي أكتسب بعض الوقت قبل أن أبت في الطلب.

- ستة بس!

هكذا أعاد الولد طلبه بنفس اللهجة الآمرة فقلت له:

- تعمل بيها ايه؟

فرمقني في استهجان شديد لهذا الغباء الشرقي الذي يجعلني أسأل مثل هذا السؤال وقال ما معناه:

- سبحان الله.. أصرفها!

لكني لم أكن لأنهزم بهذه السهولة.

- تصرفها في إيه؟

- في أي حاجة؟

وهذا شيء طبيعي جدا، فما المانع من الفنجرة مادامت من جيبي؟ وعلى أي حال فقد دسست يدي في جيبي وفي نيتي أن ألبي طلبه ولكنني ما برحت أن أمسكت بشيء في داخلي قال لي إنني لا يجوز أن أشجع هذا الولد اللطيف على أن يصبح شحاذا، وأنه من الأجدى له أن يعرف أن الفلوس لا تكسب بهذه السهولة.

صحيح أنه قد يكون سليلا لإحدى الأسرات الاستعمارية، وأن جده الأكبر ربما كان جاويشا أو ضابطا بين القوات البريطانية التي هزمت أحمد عرابي، ولكنني لا يمكن أن أحمّل الولد أخطاء جده وأن أحوله إلى شحاذ لهذه الاعتبارات التاريخية.

وفي الوقت نفسه - إذ أنا امتنعت عن الدفع للولد - ألست بذلك أكون مسئولا عن الإساءة - وعلى المستوى الدولي - لسمعة الكرم العربي؟ فهو - كما ترى - واحد من المواقف النادرة التي يحتاج المرء فيها إلى حنكة بالغة لكي يعرف أين تكمن الفضيلة.

ولكن وقت الولد فيما يبدو كان أضيق من أن يتسع لكل ذلك الجدل الأخلاقي فقال لي في صبر نافد:

- ح تجيب ولا لأ؟!

فرحت حينا أعابث العملات المعدنية في جيبي توطئة لأن أتوصل إلى ما خيل إلى في تلك اللحظة إنه القرار الحكيم: أخرجت كبشة العملات من جيبي وانتقيت له بعضها قائلا:

- كفاية عليك تلاتة بنس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

عيون خائفة

وعينان خضراوان مثل معظم عيون الإناث في لندن، في وجه أبيض وسط شعر أصفر مثل معظم الوجوه والشعور هناك، ومع ذلك خيل إليّ أنني أرى فيهما شيئا مختلفا عما أرى في عيون سائر الإناث. فهذه الأنثى على غير المألوف رقيقة النظرات عذبتها، تنظر إلى الدنيا بدون أن تزغر لها، ولمسة خفيفة من التهيب لما حولها من الناس في عربة المترو. فإذا التفتت هنا أو هناك فهي تلتفت ببطء وأناة، لحظة عابرة، يستقر بصرها على الشيء ثم يرتد عنه بسرعة، شاعرة لسبب ما إنه ليس من حقها إطالة النظر إلى الأشياء، إذا افترضنا أن لها حق النظر أصلا، إذا كانت إنجليزية أو أوروبية عموما فلابد أنها قد واجهت في طفولتها قدرا أكبر من المألوف من الكبت، الأمر الذي يوحي بأن أباها أو أمها - أو كليهما - من غلاة المحافظين أو حتى من المتطهرين. وبدأ القطار يهدئ من سرعته ونهض من الناس من ينوى النزول في المحطة التالية، وبينهم شاب أسمر شرقي السمات مد يدا ربت بها على كتف الفتاة لينبهها إلى ضرورة النهوض قائلا بالعربية:

- يا الله يا فاطمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبادة الشمس

شيء أصفر اللون تسلل من النافذة فجأة وانفرش على أرض الحجرة، احتجت إلى نحو من دقيقة كاملة لكي أعرف ماذا يكون - فالمرء في لندن يحتاج إلى ذاكرة أقوى من المعتاد لكي يعرف ضوء الشمس حين يراه! أخيرا زالت الغيوم ونظرت فوقى إلى سماء زرقاء صافية، أنا الذي كدت أنسى نهائيا أنني عضو في المجموعة الشمسية! فاندفعت إلى الطريق كالمجنون، ما منعني من أن أرقص وأتنطط إلا خوفي على سمعتي كصحفي ومصري، فاكتفيت بأن رفعت كفي إلى وجهي أدعكه بهما لكي أغسله بهذا الفيض المفاجئ من الدفء الإلهي، مثل رجل يمسح وجهه بالدعوات في نهاية الصلاة. وحانت مني لفتة إلى حديقة بيت أمر به فرأيت على رقعة الحشائش الخضراء ما خيل إليّ بالنظرة الأولى أنه أنثى عارية وما تبين لي بالنظرة الثانية (50 ثانية) أنها أنثى عارية فعلا إلا من المايوه. هناك تستلقي كالقتيلة على العشب الأخضر، عاجية اللون عطشى منذ أسابيع لتلك القبلة الشمسية الدافئة.

نعم هي بردانة مسكينة، فرحت بالشمس فتجردت من ثيابها لتشرب منها كل خلية في جسمها المثلج. شأنها شأن عشرات البنات والصبيان الذين ملطوا في الحدائق الخاصة أو العامة، وعلى الحشائش تمددوا وركعوا في صلاة صامتة للشمس التي طلعت، مئات من البقع البيضاء على الحشائش الخضراء، متمرغة في الضوء متنعمة سعيدة، لو رآها أخناتون لظن أن ديانته قد عادت إلى الحياة. ألا ما أتعس أولئك الأوروبيين الذين يفرحون كل هذه الفرحة بساعة شمس عابرة! وما أتعس تجار الأقمشة والملابس لو أن أولئك الأوروبيين هم الذين يعيشون على ضفاف النيل تحت شمسه المشرقة أبدا!

ومهما كان من أمر فأنا واثق من صحة تلك النظرية السيكوطقسية في تفسير نشوء الإمبراطورية. فلست أشك في أن الإنجليز ما كانوا ليفكروا في هجر بلادهم لولا جوهم اللعين، ولكانوا أكسل من أن يصنعوا الأساطيل التي يسرقون بها الأراضي المشمسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

في ركن الخطباء

وفي الشمس التي أشرقت وجدتني أقترب من ذلك الركن الشهير في هايد بارك ويسمى بركن الخطباء، حيث يقف بعض المعتوهين على صناديق من الخشب لكي يعبّروا عن أنفسهم في مختلف القضايا الدينية والسياسية، فاشلين غالبا في إثبات آرائهم وناجحين دائما في استثارة سخرية الناس منهم، فليس من الحكمة أن تقف لكي تدافع عن الكاثوليكية ضد البروتستانتية وسط مجموعة من الناس أوشكت أن تكف عن الاهتمام بأي من المذهبين، وليست هناك أية مناسبة لأن تضيع يوما كاملا في الحديث عن بشاعة الحرب الذرية مستخدما نفس الأسانيد التي قرأها مستمعوك في جريدة الصباح، أما إذا خلعت فانلتك عن جسم مغطى بأنواع مختلفة من الوشم الأزرق الأخضر فلا أظنك ستظفر من المجتمعين حولك بأكثر من شعور بالأسف على أنهم لم يذهبوا إلى حديقة الحيوان.

معظم أولئك «الخطباء» ليسوا أكثر من نفوس حائرة تعسة ضلت طريقها إلى العيادة النفسية، ووجدت في هايد بارك مكانا تتنفس فيه تحت حماية القانون عما يعتمل في صدرها المكروب. فلا شك أن «أعقل» أولئك الخطباء هي تلك السيدة البدينة التي تجلس وفي يدها عصا تقرع بها صفيحة قديمة فارغة، وتنشد على الإيقاع وبصوت مضحك أغاني قديمة يرددها بعض المتفرجين على سبيل المجاملة. فهو وفقا لذلك - ركن الخطباء بهايد بارك - نوع من العيادة النفسية التي يقوم فيها المجتمع كله بدور الطبيب لتلك النفوس الحائرة، ومن الإنصاف أن نقول إن ذلك المجتمع قد نجح حقا في تقمص دور الطبيب، الذي يستمع في صبر لهلوسة المريض ولا يعمد إلى التريقة عليه في نزوات السخرية المتباعدة بأكثر من سبقه إلى إكمال جملة له يكون قد سمعها منها في أيام الآحاد السابقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشحاتة: كفنٍّ جميل

أنغام لا تخلو من الطرب تنبعث من ثنائي الماندولين والأوكورديون، على إيقاع من رنين البنسات البرونزية التي لا تبرح تتساقط من أيدى المارة في تلك الزكيبة الصغيرة العتيقة، المتدلية من رقبة الماندولين الذي يحتضنه الإنجليزي العجوز ذو الساق الواحدة!

على الرصيف المزدحم من شارع أوكسفورد، أمام محل سلفردج الذي هو واحد من أكبر المحلات التجارية في العالم كله، والذي بيع في العهد الأخير في مقابل ذلك المبلغ الصغير الملموم: 57 مليونا من الجنيهات!

كان في إمكان ذلك الشحاذ الأعرج أن يقبع في منزله ويعتمد على الإعانة التي تصرفها الحكومة للعاجزين أمثاله، لكنه فيما يبدو يفضل أن يكسب عيشه في الهواء الطلق وبلمسة من الفن. إنما أعجب من أن البوليس لا يتعرض له أو لزميله، ومن أن الحكومة لا ترى فيه شيئا يتعارض مع كرامة لندن السياحية، وكأنها تقول للسياح: تلك هي لندن عاجبكم ولا لأ؟!

وهذان الشحاذان الموسيقيان بالذات محط أنظار كافة السياح في شارع أوكسفورد، وهذا في أغلب الظن بسبب ذلك التناقض المثير بين إنسان عصري يشحذ بالنغم أمام محل تجارى ثمنه 57 مليونا. فربما كان البوليس يتدخل في أمرهما عندما يؤول الحكم إلى المحافظين، الذين لا يحبون إبراز تلك الصور الموحية بالفوارق الاجتماعية، وربما كان هذا الشحاذ الأعرج وزميله عضوين في الحزب الشيوعي الإنجليزي، وما يمارسان تلك الوظيفة أمام سلفردج إلا رغبة في تجسيم ما يزخر به المجتمع الرأسمالي من المتناقضات!

ولعل زميلا لهما في نفس الحزب، ذلك الرجل الآخر الذي يذرع نفس الرصيف من شارع أكسفورد، على كل من صدره وظهره إعلان خشبي كبير عن قارئة للكف وكاشفة للغيب اسمها مدام ساندرا. طول النهار يغدو ويروح وسط الآلاف من أهل البلد والسياح، عاملا كادحا أحمر العينين بشدة، تاركا في النفس - نفسي أنا على الأقل - إحساسا غريبا بالمفارقة، إذ أتساءل لماذا لم ينتهز الرجل لحظة من لحظات الفراغ لكي يبسط للمدام كفه ويأخذ منها فكرة عن غيبه الخاص؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نسبية الفقر

وعلى رصيف نفس الشارع غير بعيد من محلات سلفردج «٥٧ مليون جنيه» رأيت لمة كبيرة فانحشرت فيها لأعرف سرها بين ميكرو جوبين عاديين، وهناك رأيت رجلا إنجليزيا قد وضع على الأرض صندوقا كبيرا مفتوحا، ومنه يخرج زجاجات عطر صغيرة ينادي عليها بما معناه:

ـ سلفردج ببيعها باتنين جنيه! لكن أنا موش ح أقول اتنين.. ولا حتى جنيه.. ولا نص جنيه.. ربع جنيه بس.. ربع جنيه القزازة يا بلاش.. يا الله يا جدعان مال الخواجة!

هذا الرجل دليل ناطق على أن الفقر مازال موجودا في عاصمة الإمبراطورية السابقة، فلو أن هذا الرجل لم يكن فقيرا فلماذا لم يفتح له محلا مثل سلفردج بدلا من أن يكتفى بمنافسته بهذه الطريقة البدائية؟

ولهذا السبب - لأنه فقير - تجمّع حوله كل أولئك الناس وغابت في الجيوب والحقائب عشرات الأيدي تبحث عن أرباع الجنيه، من الذي لا يخف إلى نجدة هذا الرجل التعس الذي لا يوجد أدنى شك في أن أولاده على شفا الموت من سوء التغذية إن لم يكونوا قد ماتوا فعلا؟

فلو كان معي ما يسمح لي بهذا الترف الخيرى لاشتريت منه زجاجة أو اثنتين ولا الحوجة لسفلردج، ولكن أنّى لي في لندن بالعملة التي تسمح بشراء الكولونيا التي حتى في القاهرة لا أشتريها إلا إذا تعدت حرارة الولد المريض 41 وشرطتين؟!

فاكتفيت بأن أتنهد وأنصرف، وعند محطة الأتوبيس وقفت أتصفح الجريدة التي أيدت تلك الحكاية الخطيرة عن وجود الفقر في بلاد الإنجليز. فلقد أجرت إحدى الهيئات بحثا في أحد أقاليم بريطانيا، ومنه تبين أن سبعين في المائة من سكان ذلك الإقليم التعس يعيشون في حالة فقر مدقع، فمعظم العائلات هناك - يا كبدي عليها - لا تربح أكثر من عشرة جنيهات في الأسبوع الكامل!

خبر يمزق بالطبع نياط القلب، فإذا صح هذا الكلام فماذا إذن كانت فائدة كل تلك القرون من قتل الهنود والسود والبيض في أربعة أركان الأرض؟ أهذه نهاية كل هذا التعب. أن بعض الأسرات البريطانية مازالت تربح في الأسبوع مبلغا لا يزيد على الذي تربحه أسرات البلاد المنهوبة في الشهر وربما في العام؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

العسكري الحزين

ناظرا إلى عسكري البوليس الإنجليزي لا أدرى لماذا يخيل إلى أنه ليس سعيدا في حياته، لا شك أن للمطر اللندني الوضيع أثره في ذلك، إذ يلوذ منه المدنيون بالبيوت والبارات ويضطر هو أن يشربه كله في عرض الطريق، لكنه بدا لي غير سعيد حتى في تلك الساعات النادرة التي تطلع فيها الشمس أو تعد بالطلوع، ثمة نظرة حجرية في عينيه توحى بصرامة أكثر مما يستلزمه إجراء بوليس عادي مثل ذرع الرصيف بتلك الخطوات البطيئة الواسعة.

ولربما كان السبب في تلك الجهامة أنهم يصرون هناك على اختيار عساكرهم طوالا ممشوقي القوام يميلون إلى الوسامة، فرجل بهده الصفات قد يعاني شيئا من المرارة المبررة بسبب هذه الوظيفة الصغيرة، شاعرا طول الوقت بأن مكانه الطبيعي ليس الرصيف وإنما شاشة السينما، وأن عمله الطبيعي ليس مطاردة اللصوص وإنما مطاردة الحسان.

وهناك احتمال كبير لأن تكون من أسباب تعاسته تلك الخوذة المضحكة التي يضعونها فوق رأسه مثل سلطانية مقلوبة، والتي لا يمكن أن تكون لها أية فائدة في غير أوقات المظاهرات المعادية لأمريكا كما أنه قد يكون بنطلونه هو السبب، باتساعه الشديد الذي يجعله أشبه ببنطلون على ساقي دمية في فاترينة للعب الأطفال.

نعم هو ذلك البنطلون في أغلب الظن، لا بسبب هذا الاتساع وحده وإنما بسبب ما يخيل إلى من أنه - على عكس بنطلونات الناس جميعا - ليس له جيوب، حقا إنني لا أستطيع أن أقطع بذلك بسبب طول الجاكتة، ولكن إذا كان لبنطلون العسكري جيوب فلماذا لم أر يده موضوعه في جيبه مرة واحدة؟ فإذا صح ظني فلا شك أن هذا البنطلون يصبح نوعا من التعذيب، كلما هم المسكين بأن يدخل يده في جيبه فيجد إنها قد دخلت في لا شيء.

ولقد خطر لي أن أستوثق من الأمر بنفسي، بأن أقترب منه وأرفع ذيل جاكتته في هدوء باحثا عن الجيب، لكنني قلت لنفسي إنه في الغالب لن يرحب بهذا القدر الزائد من الفضول السياحي. بل إنه لن يرحب بمجرد سؤالي إياه إن كان له جيب أم لا، استنادا إلى ما وصفت لك من نظرته الحجرية الكارهة للحياة، فكيف يرحب بهذا السؤال الشخصي وهو كما دلتني التجربة لا يرحب بسؤالي إياه أين يوجد شارع كذا؟ نعم هو يجيبني دائما على هذا النوع الأخير من الأسئلة، ولكنه وهو يفعل يبدو من أمره أنه يكرهني ويكره الزمن الذي أرغمه على إجابتي. أصبعه التي يشير بها إلى الطريق يتمنى فيم يبدو أن يدبها في عيني، ولهجته لهجة رجل لا يرشدني بقدر ما يشتمني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

يـلّا حسن الختام

في آخر الشارع زمجر صوت مـوتوسيكل هاجم نحوي كالوحش المجنون، فوثبت على الرصيف وأنا ألعن جنون السرعة المسيطر على شباب اليوم، ثم اقترب الموتوسيكل مني ورأيت راكبه فإذا به لا شباب اليوم ولا يحزنون، بل هي عجوز بنت ستين أو خمسين على الأقل! فهناك شيئان ينتشران في شوارع لندن كالوباء، الحمام الذي لا يجد من يأكله والعجائز الإنجليزيات اللواتي لا يجدن من يلمـهن في البيت، لا يمكن لك أن تنعطف في طريق إلا وترتطم بعـجـوز مـقـبلة من وراء الناصية، ولا يمكن أن يخطر لك الجلوس على دكة في حديقة أو شارع إلا وتجد عجوزا قد سبقتك إليها.

هي ترفض الاعتراف - العجوز الإنجليزية - بأنها قد راحت عليها، تموت ولا تقول يالله حسن الختام! وهي ف فيما يبدو تلفق عشرات الأسباب التي تبرر خروجها من البيت، مثل رغيف عيش تدعى أنهم في حاجة إليه، زاعمة أن حفيدها لا يستطيع أن ينوب عنها في ذلك لأنه – يا ضنايا - قد يصاب في هذا البرد بالزكام، فإذا تصادف أن كان البيت في غير حاجة إلى شيء فهناك كلبها الصغير الذي يجب أن تخرج به لكي تفسحه، غير مكترثة بما يتساقط من رذاذ يهدد بأن يكون مطرا، باسمة في سعادة كلما اضطرت إلى أن تتوقف - منقادة للعزيز - عند هذه الشجرة أو تلك!

وهي في تلك المشاوير تحب أن تكون أنيقة على طريقتها الخاصة، وكافة ورود الحديقة رأيتها في فستان واحدة منهن على خلفية من الحشيش الأخضر. وعلى رأسها قبعة أشبه بسلة للفاكهة، ومن السلة تنبعث ريشة سرقتها من ذيل طاووس.

وفي البارات يجلسن ليشربن البيرة شوبا بعد شوب، ضاحكات بأصوات خشنة عالية تطغى على أصوات الرجال، لم يسمعن - فيما يبدو - بتعبير «سن اليأس» الذي نطلقه نحن على الأنثى حين تكف عن الحيض، مصرات على ألا يلقين عزرائيل بغير شيء من رغوة البيرة على شفاههن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فائدة للشفاطة

والعواجيز من الخناشير الإنجليز لا يقلون عن عجائز النساء عنادا وتشبثا مستميتا بالحياة، وخذ على سبيل المثال ذلك الرجل الذي رأيته في أحد المشارب، مقوس الظهر حتى ليوشك أن يلامس بأنفه ركبتيه، وعلى ساقيه المرتعدتين بشدة يحمل ما لا يمكن أن يقل عن ثمانين عاما، سار نحو البار يتخلع وينتفض وأكاد أسمع لعظامه صريرا، وطلب من عاملة البار بصوته الأهتم شيئا لم تفهمه لأول وهلة، فاستعادته عدة مرات قبل أن تدرك إنه يطلب شفاطة! في استغراب نظرت إليه ثم قدمت له الشفاطة التي تناولها بيد ترتعد مثل ذراعه ومثل ساقيه، وعاد يتخلع ويكركب متجها إلى مائدة رأيت فوقها كوبا من البيرة لا أدرى ما الذي أوصله إلى هناك، ثم جلس الوغد وبيده المرتعشة راح ينشن بالشفاطة نحو الكوب حتى نجح في أن يضعها في الشراب، ثم مال إلى الأمام وأطبق بشفتيه على الشفاطة وهات يا شفط.

هي قطعا طريقة غير تقليدية لشرب البيرة ولكنها كانت الطريقة الوحيدة المتاحة له، فبتلك اليد المهزوزة ما كان الرجل ليظفر من كوب البيرة بأكثر من جرعة صغيرة، وباقي الكوب على هدومه! آخر عناد وآخر إصرار على كل من الحياة والبيرة، ليس غير الموت وحده يستطيع أن يحدد إقامته وأن يحرمه من كوبه المحبوب، فلو اشتد عليه المرض حتى ألزمه الفراش فما أظنه يقلع عن الشراب، وهناك في السرير مرتعدا عاجزا أهتم، ما أشك في إنه سوف يصرخ فيمن حوله مطالبا إياهم بزجاجة البيرة وبزازة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلد الكلاب

وقع غريب لأقدام تدب وراء ظهري في ممر الأتوبيس، وملتفتا إلى مصدر الصوت دخل في كادر النظارة ما يشبه أن يكون رأسا لأسد، مدى لحظة قبل أن أتبين أنه رأس كلب ضخم تقوده إحدى عجائز لندن اللعينات. وبجلوس السيدة «بَرَكَ» الكلبُ على الأرض فكاد لثقله يهز الأتوبيس هزا. وراكب آخر وصل وكان لزاما عليه لكي يصل إلى المقعد الخالي أن يعبر فوق الكلب، وحدث ذلك في اللحظة التي تحرك فيها المذكور فتعثر الرجل فيه وأوشك على السقوط، فابتسمت العجوز قائلة له: إنها آسفة، وأجابها بقوله: إنه هو الذي آسف، بإخلاص يقولها كأنما الأتوبيسات قد صنعت أصلا لركوب الكلاب قبل أن يتطفل عليها المتطفلون من بني البشر. ونفس هذا المعنى قرأته في عين الكلب التي صوبها إليّ مدى لحظة بنظرة لا تخلو من الاستغراب، ثم التفت إلى صاحبته كأنما يقول لها: شايفة ركاب آخر زمن؟

فالكلاب في لندن - مثل العجائز اللواتي يسحبنها ومثل الحمام - شيء أشبه بالوباء، واهتمام سكسوني بالجنس الكلبي يوشك أن يرتفع من مرتبة التدليل إلى مرتبة التقديس. ولا شك أنني كنت أجد نفسي في موقف لا يخلو من الحرج لو أنني دخلت إلى ذلك الصالون الذي مررت به لكي أحلق شعري، قبل أن أكمل قراءة المكتوب على اللافتة وأكتشف إنه صالون حلاقة للكلاب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإنجليزي البارد

الشمس بالطبع قد أضحت مرة أخرى في خبر كان، والأمطار الوضيعة تنهمر على دماغي وليس معي مظلة، وبيني وبين الفندق نحو مائتي متر يجب أن أقطعها على قدمي، بدأت بالطبع بمشية سريعة إلا إنها وقورة، وابتسامة فلسفية توهم الآخرين بأنني أكبر من تلك الظواهر الطبيعية السخيفة، غير أنني مع بدء تساقط القطط والكلاب رأيت أن السير السريع يجب أن يتحول إلى حنجلة، تلك الحنجلة التي ما برحت بدورها أن تحولت إلى جرى صريح بكل قوتي وملعون أبو الوقار! وبينما أجرى أسب وألعن مستخدما كل ما عندي من ألفاظ بذيئة أعرف أن أحدا لن يفهم منها شيئا.

لكن الجري لم يمنعني من الفلسفة، إذ ومض في ذهني ذلك الخاطر الفلسفي عن السبب الذي من أجله كان الرجل الإنجليزي أبرد من غيره بعض الشيء. وهذا السبب هو أن الرجل الإنجليزي قد وجد لزاما عليه أن يختار بين أمرين: إما أن يكون باردا وإما أن يجن! فلو أنه سمح لأعصابه بأن تثور كلما هطل المطر، ولو أنه راح مثلي يسب ويلعن فسوف تتحول حياته كلها إلى حالة من الردح المتواصل، ولسوف تنعكس هذه الحالة العصبية على سلوكه العام بما يهدده بفقد كافة أصدقائه، وربما انتهى الأمر بفصله من العمل وعودته إلى البيت لكي يجد أن زوجته قد أخذت العيال وطفشت.

امسك أعصابك يا جورج! اهدأ يا جون! خليك بارد يا وليام! هكذا يقول الرجل الإنجليزي لنفسه طوال الوقت، جيلا بعد جيل وهو يجرى تحت تلك الأمطار اللعينة حتى تحول التطبع إلى طبع، ونشأ هذا الرجل الذي اضطر إلى أن يكون باردا. ولذلك يقول الذين يعرفون الأستراليين أنهم ليسوا باردين مثل أجدادهم الإنجليز، ولا شك أن الإنجليزي المعاصر لو سافر إلى أستراليا وقضى بعض الوقت هناك لبدأ يتغير تدريجيا مثل حلزونة تشعر بحرارة الشمس فتمد رأسها وتخرج من قوقعتها، شيئا فشيئا يذيب الدفء ثلوج نفسه ويزيل جهامته ويجعله مرحا مثل القنفذ الذي يتقافز حوله في الشمس المشرقة.

وفي هذا الانهماك الفلسفي وأنا أجري نسيت أن أتخذ ذلك الاحتياط اللازم بما يناسب الموقف، وهو أن ألف في الجريدة رغيف العيش الذي كنت قد اشتريته لزوم الغداء، وهناك في الفندق تبين لي أنني أحمل بدلا من الرغيف كتلة من الدقيق المعجون بماء المطر، أكلة لا تصلح لكائن سوى البط أو الفراخ، وللأسف لم يكن في الفندق أرز، وإلا لأضفت بعضا منه إلى الرغيف وأكلته فتة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أبيض وأسود

لابد أنك قرأت كثيرا عن السفاحين أولاد الكلب، الذين أبحروا ذات يوم من موانئ بريطانيا والبرتغال وغيرهما إلى شواطئ أفريقيا، وذلك لممارسة أوسخ تجارة يمكن أن يمارسها الإنسان وهي تجارة الإنسان نفسه! بقوة السلاح الحديث يصيدون السود العزل مثلما تصيد الأرانب البرية أو الغزلان، وفي قاع السفينة يكدسونهم كالخنازير، في رحلة طويلة إلى المستعمرات في الأمريكتين، في خلالها يموت منهم بالمرض والجوع من يموت، وبالرصاص يموت من يخطر له أن يثور، وهناك في تلك المستعمرات يسمونهم بالآلات الحية اللازمة لاستغلال المزرعة، تماما مثل ما فيها من البقر والجاموس. ولعله مما يدلك على بشاعة تلك الحرفة أن أحد أولئك القراصنة - وهذا إنجليزي - عمد في ذات غارة على أولئك السود التعساء إلى قتل عدة آلاف منهم في سبيل أن يصطاد أربعمائة لا غير!

ساورتني تلك الخواطر وأنا جالس في مترو لندن، وغير بعيد مني منظر يحتاج المرء إلى كثير من الجهد لكي يصدق أنه يراه، منظر تلك اليد البيضاء للشاب الإنجليزي وقد اشتبكت في حنان باليد السوداء لصاحبته الأفريقية المسمسمة. وبين حين وآخر تتضاغط اليدان في محبة زائدة، في أجمل صورة بالأبيض والأسود للاعنصرية وللتضامن الأفرو أوروبي..

فلا شك أن شيئا لا يقل عن المعجزة قد وقع حتى جعل من الممكن أن ينحدر هذا الشاب الإنساني الرقيق من صلب ذلك السفاح المجرم ابن ستين كلب! ما هو ذلك الشيء لا أدرى ولكنه قد حدث، ومن الابتذال بالطبع أن أقول إن هذا الشاب لا يفعل شيئا سوى التكفير عن ذنب الأجداد.

وكانت هناك في عينه نظرة متجاهلة لمن يجلسون حوله ولا تخلو من لمسة من التحدي، إذ يعلم أن ليس كل من يرون هذا المنظر يباركونه من قلوبهم، لاسيما تلك الشلة الجالسة هناك والمكونة فيما يبدو من سياح أمريكان. وهو في الوقت نفسه يعرض شخصه لتهمة القصور، وأنه لو لم تنبذه البنات البيض لما رضي لنفسه بتلك الصديقة السوداء، ولكنه يقول للناس بتلك النظرة المتحدية أن الأمر لا يهمه بالمرة وإنه - حر في اختيار صديقته، وأنه يؤمن بالمساواة بين كل البشر، وبالاختصار كده طظ فيكم!

وفي عين البنت نظرة سعيدة حالمة، وشبح ابتسامة يتلاعب على زاوية فمها لا يخلو للأسف من شبهة مرارة صامتة. فهي بدورها تقرأ ما يدور في أدمغة الناس حولهما من أنها حين ضمت ذلك الشاب الأبيض إليها قد سرقته من أهله وأخذت فيه شيئا أكبر مما تستحق.

أحببت الاثنين من قلبي وتمنيت لهما أطيب الأوقات، وتذكرت كلمة كنت قد كتبتها ذات يوم عن التهجين، وعن مدى غباء الإنسان الذي يعمل على تحسين كافة السلالات ماعدا سلالته الخاصة، غير مكترث بعبر التاريخ التي تشير إلى إنه

ما من حضارة كبيرة قامت إلا على أثر هجرات متعددة واختلاط بين عدد من الشعوب أدى إلى ظهور تلك الطفرة الحضارية الجديدة.

وتضاغطت اليدان من جديد في حنان فازداد حبي لهما، ولذلك - أو بالرغم من ذلك - تمنيت لهما أن يتزوجا وينجبا طفلا. فلست أشك في أنه سوف يكون أجود وأمتن من أي طفل يولد أوروبيا أو أفريقيا خالصا، دعك من أن لونه سيكون جميلا جدا، أم تراك سوف تجادلني في جمال لون القهوة باللبن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

من الذي يقود القطار

والسود في لندن كثيرون إلى درجة غريبة حقا، ولرب قطاع معين في لحظة معينة في الشارع اللندني يوحى إليك - لو أنك نُقلت إلى لندن معصوب العينين - بأنك قد نُقلت إلى كينيا لا إلى بريطانيا! ولعلك تذكر الآلاف الذين امتلأت بهم مطارات بريطانيا وموانئها عندما صدر ذلك القرار الخاص بوقف الهجرة إليها بعد تاريخ معين، وهي ظاهرة وجدت من الإنجليز من عارضها خوفا من أن يتحول الوضع في بريطانيا إلى ما يشبه الوضع في أمريكا، وفي الوقت نفسه وجدت من يؤيدها مستندا إلى ذلك الرد المنطقي:

- إذا نحن أوقفنا هجرة السود إلى بريطانيا فمن الذي يقود القطارات؟! وذلك أن نصف قطارات المترو التي ركبتها كان يتصدرها سائق أفريقي، وتلك الوظيفة ليست من الوظائف المحببة للإنجليز لما فيها من مشقة بالغة وشبه انعدام لإجازات آخر الأسبوع المقدسة. وإذا كان الأفريقي الفقير يفضل أن يقود قطارا في لندن على أن يسوق بقرة عجفاء في كينيا، فإن الإنجليزي الفقير يفضل أن يعيش على الإعانة الحكومية أو على ما يدره عليه ماندولين يداعب أوتاره على أرصفة بيكاديللي.

فلو أن الحال في سائر العواصم التي لم أزرها مثل الحال في لندن، أي لو كانت نسبة السود واحدة بين سائقي القطارات وسائر وسائل المواصلات، أفليس من الطريف أن نصل إلى هذه النتيجة الغريبة: أن السود هم الذين - رمزيا على الأقل - يقودون الحركة في العالم كله؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

جحيم من القبل

منزلقا على سلم المترو المتحرك بالوقار المناسب لرجل يقشر باكو شوكولاتة كادبري بالزبيب واللوز، صعد نحوي على السلم المجاور - بنفس الانزلاق إلا أنه إلى أعلى - منظر قابلته بالبرود المتوقع مني بعد عدة أسابيع في لندن، منظر الحضن المعلن على الملأ، حالة - حب بين ذكر وأنثى، حتى بالرغم من تلك اللحية الحمراء التي تميز بها هذا الذكر، والتي كانت كثة بدرجة قد تثير حسد أسقف كانتربري نفسه إذا افترضنا أن كانتربري تتطلب من أسقفها لحية. وحيث أن البنت كانت تقف على درجة من السلم أعلى من صاحبها فقد انتهز الوغد الملتحي تلك الفرصة وأسند على صدرها كلا من رأسه ولحيته مسلما الأخيرة لأصابعها الحنون التي تجوس بين الشعيرات الكثيفة مثل قردة تفلي صغيرها!

ومن خلفهما كان ينزلق شاب وفتاة آخران في حالة لا تقبيلية غريبة، الأمر الذي يدل على أنهما قد وصلا في حبهما إلى درجة خطيرة من الفتور، وأنه قد مضى على تعارفهما ما لا يمكن أن يقل عن ثلاثة أسابيع كاملة، غير أن البنت ما لبثت أن تداركت الموقف بأن ضمت الولد إليها وقبلته، مضطرة إياه إلى أن يرد التحية بأحسن منها، وتلك ظاهرة لاحظتها في أكثر من قبلة لندنية من مئات القبل التي لا تبرح تزقزق كالعصافير حولي، أن البنت الغربية هي التي بدأت تمسك زمام المبادرة، ملتمسة تلك القبلة بجذبة لا تخلو من العنف العابث للذكر المتردد مع مد نحوه للبوز الملائم العطشان.

روتينية جدا تلك القبلات العلنية إلى درجة أنني رأيت شابا من أبطالها ينزع فمه عن فم صاحبته مدى لحظة تتيح له أن يتثاءب توطئة لأن يعاود القبلة من جديد! وبهذا الملل الجنسي يتأكد أن أوروبا العصرية قد نجحت فعلا في إلغاء الجنس كمشكلة، بعد قرون طويلة قضتها أوروبا المسيحية وهي تحاول إلغاءه كظاهرة. ولعل الصناعة قد خلقت لها من المشاكل الكبيرة ما جعل لزاما عليها أن تبدأ بإلغاء تلك المشكلة الطبيعية الصغيرة.

والشرقي منا قد يجد صعوبة في الجزم بأيهما أحسن - قبلة تدور على سلم المترو أو أخرى تدور تحت سلم العمارة! أو قل أيهما أقرب إلى الصحة الشبع إلى درجة التثاؤب أو قضاء الساعات في خيالات الجنس المجهولة، في الحجرات الموحشة على صوت مطربة في الراديو يتمرغ في تأوهات الحرمان - حرمان الشباب لا المطربة طبعا! ومهما قال الشرقي فسيظل الشارع الغربي على حاله، وسيظل يمتزج فيه أزيز الموتورات برنين القبلات، فدعنا من هذه الفلسفة التي أنستني أن في يدي باكو من الكادبري المقشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مقاطيع أم موظفين

في بيكاديللي من جديد، ومازال المقاطيع إياهم مرابطين حول التمثال، وإزاء الكاميرات التي ما برحت تطرقع حولهم، وبعد أن صاروا أحد المعالم السياحية في المدينة مثل حرس الملكة، بدأت تساورني بشأنهم فكرة جديدة، وهي أنهم في أغلب الظن موظفون في مصلحة السياحة! لا فلسفة هناك ولا يحزنون، وما هذه الثياب الغريبة إلا بدل الشغل! السياح يحبون أن يشعروا أن في العالم «موجة جديدة» وفلسفة جديدة، فلماذا لا نقدم لهم تلك الصورة السيريالية الملفقة لندخل السرور إلى قلوبهم في مقابل شيء من فلوسهم؟ وأي تمثال أخر غير تمثال الحب يمكن أن يساهم عن طريق الرمز في إلهاب العواطف والخيالات السائحة؟

فإذا صحّت هذه الفكرة فلا يبعد أن يأتي يوم تمتد فيه موجة الإضرابات المتلاحقة في لندن إلى هؤلاء الموظفين، وعند ذلك ينظر إيروس تحته فلا يرى بنتا حافية ولا شابا يتقصع! وهنا يتعين على الحكومة أن تحضر موظفين غيرهم لتحطيم الإضراب، وربما تحول التمثال إلى شرطي متنكر يصوب إلى الكارهين سهما حقيقيا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

مع السلف الصالح

كإنسان محب لجده الحيوان لم يكن معقولا أن أجدني في لندن دون أن أزور حديقة الحيوان فيها، بالرغم من أن ثمن دخولها سبع شلنات ونصف، ومن أنني توجهت إليها في أيامي الأخيرة ولم يبق في جيبي سوى اللضى وإن كنت لا أعرف ما هو اللضى.

وهي حديقة جميلة حقا لا أستطيع أن أعترض فيها على شيء سوى عشرات اللافتات التي تقول إنه من الممنوع إطعام الحيوانات، حتى وإن كان ذلك - كما تقول اللافتات - حرصا على صحتها. فلا شك أن هذا أمر مزعج للطفل البريطاني إذا كان من نفس طينة أطفالي، الذين لا تكتمل لهم متعة زيارة الحديقة ما لم يطعموا القرود والدبة والزرافة، دعك من القرش الذي يودعونه في زلعومة الفيل.

ولعل أجمل ما في الحديقة ذلك البناء الضخم مثل مسرح البالون، المصنوع من شبكة معدنية رقيقة لا تحجب النور أو الهواء، وفيها ترتع عشرات الأنواع من الطيور الملونة وغير الملونة حرة طليقة، وأنت أيضا لك حق الدخول إليها لترتع مع نفس الطيور، بألفة مثيرة حقا إذا كنت تميل مثلي إلى سلفك الصالح.

ومما لفت نظري فيها أيضا ذلك العدد الكبير من التماسيح الضخمة الملظلظة، في مقابل تلك السحلية التي أذكر أنني رأيتها يوما في حديقتنا بالجيزة، والتي لم أوافق على أنها تمساح إلا لكي لا أكذّب الرجل الذي كتب تلك الكلمة على القفص. وحيث أنني لا أذكر أنني رأيته في العهد الأخير فأغلب الظن أنه مات من الوحدة والملل - التمساح لا الرجل طبعا، فلست أدرى كيف توجد في لندن تلك الثروة التمساحية الضخمة في مقابل ذلك الفقر التمساحى عندنا، والمفروض فينا أننا نتسلى على ضفاف النيل بإطعام التماسيح في أيام الجمعة. وناظرا إلى الأسود أدهشني أنها مثل الأسود التي في حديقتنا تماما، الأمر الذي يدل على أن الحيوانات ستظل دائما أقرب إلى المحافظة على تقاليدها من الإنسان. فلا الأسد أطال شعره مثلما فعل الرجل الغربي، ولا أبرزت زوجته من خبايا جسمها أكثر مما تبرز أنثى الأسد في الجيزة.

لكنني للأسف لم أنجح في الاطلاع على كل تفصيلات الحديقة، فهل يمكن أن تمر ساعة في المدينة المبتلة دون أن ينهمر من المطر ما يفسد عليك أية متعة حتى ولو كانت زيارة أسلافك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

سيدة طيبة

وصوت رنين خافت لجرس صغير يشخلل في الحديقة الخلفية للفندق وهو لسبب ما يصل إلى أذني من جهات مختلفة، مرة من هنا ومرة من هناك، فنهضت ونظرت من النافذة حيث رأيت قطا أو قطة - لا أدري - يتقافز في الحديقة كعادة القطط مطاردا شيئا ما. ومن تنقل صوت الجرس مع حركة القط بدا أنه مرتبط به بطريقة ما. الأمر الذي ثبت لي عندما تبينت بتدقيق النظر أن هناك جرسا صغيرا يتدلى من عنقه ويشخلل معه كلما نط هنا أو هناك.

وبسؤال البنت التي تأتي لتنظيف الحجرة عن الغرض من ذلك الجرس قالت إنه يرجع إلى مشاعر الرحمة التي يزخر بها صدر صاحبة البيت، إذ كرهت أن تتعرض عصافير الحديقة للخطر من قطها فركبت في عنقه ذلك الجرس الذي ينبه العصافير وسائر الكائنات اللطيفة إلى ذلك الخطر المقترب، وأما من ناحية القط فهو ليس محتاجا إلى أكل العصافير بسبب ما يشهد به شحمه الكثير على وفرة ما يُعطى له من ألوان الغذاء داخل البيت.

كلام معقول وعاطفة تُشكر عليها تلك السيدة قطعا، وإن كنت أعتقد أن الحاجة تدعو بشدة إلى تعليق جرس مماثل في عنق كائن آخر هو العنق الشخصي للسيدة الطيبة! فبمثل هذا الجرس كانت تفكر مرتين قبل أن تتسلل إلى الحجرة لكي تضع بعض الماء بدلا من الجرعة التي نالتها من زجاجة الويسكي التي أهداني إياها أحد الأصدقاء لزوم الدفء في العاصمة الباردة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

عصر الآلة

متعة ميكانيكية غامرة وأنا أدس نصف الكراون في ثقب الماكينة التي تبيع السجائر، وبينما أستخرج العلبة من المكان المخصص أسمع شخللة لطيفة لعدد من البنسات تتساقط في مكان آخر، وهي الفكة التي حسبتها الماكينة الخبيثة كحق تبقى لي من نصف الكراون! والتماسا لتلك المتعة الميكانيكية شربت أكثر من زجاجة كازوزة مع أنني لا أحب الكازوزة وأكلت أكثر من باكو شوكولاتة مع أنها توجع بطني، وذات مرة وضعت قطعة العملة المطلوبة في الثقب فإذا بها تنزل في الوعاء المخصص دون أن تقدم لي في مقابلها أي علبة، فالتقطت العملة وأودعتها في الثقب من جديد، وإذا بها تنزل لي في الوعاء المذكور مرة أخرى، كلما أودعتها نزلت لي وأنا لا أفهم لماذا يحدث ذلك، إلى أن ظهرت لي على لوحة خاصة كلمات كهربائية تقول لي: لا بيع! أي أنها الماكينة - قد صبرت عليّ كل ذلك الوقت منتظرة أن أيأس وأنصرف فلما وجدتني لا أيأس لم تجد مفرا من إخطاري بتلك الكلمات أنها تعتذر عن البيع لسبب أو آخر!

فابتعدت عنها متلفتا حولي بالخجل المناسب من عباطتي، وحمدت الله على أنني قد رأيت تلك الكلمات وامتنعت عن مواصلة إيداع العملة ملحا في طلب العلبة. فلا يستبعد لو أنني واصلت إزعاج الماكينة بهذا الشكل أن تظهر لي على اللوحة كلمة تهزىء تزعجني بالرغم من أنها بالكهرباء!

فلست أدرى لماذا لا نستورد عندنا تلك الماكينات اللطيفة أو نصنعها، فلا شك أن ماكينة من هذا النوع سوف تدخل البهجة إلى أكثر من قلب مصري. وبالنسبة للكازوزة أعتقد أن تلك المتعة الأوتوماتيكية في الحصول على الزجاجة سوف تجعلك أقل انزعاجا عند وصولك في تجرعك للسائل إلى الصرصار الصغير السابح فيه. نعم نحن في حاجة إلى ذلك النوع من الماكينات في هذا الوقت الذي أكثرنا فيه من الحديث عن فنون التكنولوجي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

فتاة غامضة

بخطوات واسعة وواثقة سارت الفتاة في لباس غريب لا تعرف إن كان بدلة أخيها أو بيجامة أختها، وعلى صدرها الجريء وبالخط العريض نُقشت تلك الكلمة الصغيرة ذات الحروف الثلاثة Sex! ومعناها إن كنت لا تعرف هو «الجنس»، وتلك الكلمة التي لا أظن أنك - شأنك في ذلك شأني - قد رأيتها مكتوبة على صدر أي بنت، حتى ولون كانت من ذوات الدوسيهات!

فإذا تركنا الأخلاقيات جانبا، وإذا تركنا فكرة أنه إعلان لا لزوم له بالمرة شأنه شأن لوحة أعلقها أنا على صدري تقول للناس أنني صحفي، فليس من شك في أننا لا نستطيع أن ننكر على الفتاة تلك الدرجة النادرة التي تتمتع بها من الجرأة والقدرة على التحدي. كما أننا - وهذا أهم - لا يسعنا سوى أن نشهد بالقدرة الفذة للشارع اللندني على قبول هذا اللون من التحديات. وسط الزحام تختال البنت بإعلانها وليس ثمة من يعترض طريقها أو يلقي إليها بالا، تماما كما لو كان المكتوب على صدرها إعلانا عن ماركة سجائر أو فيلم سينمائي، أو حتى حكمة أو قولا مأثورا! نظرات سريعة تقرأ الكلمة ثم ترتد عنها، بابتسامة صغيرة ساخرة هنا أو هناك.

إعلان كهذا لا يمكن بالطبع أن يظهر في الشارع القاهري، حيث أن مفهومنا القانوني لما يخدش حياء الناس سوف يخول لكل العساكر حق القبض عليها، ولكل المواطنين - التبليغ عنها. ولكنه حتى بغير الناحية القانونية لا أظن أن بنتا بهذه الصورة يمكن أن تظهر في شوارع القاهرة. فلو تصادف أن وجدت البنت التي تحتكم على هذا القدر من الجرأة - وهذا مستحيل - فهي تعرف جيدا ماذا سوف يحدث لها. هذا المشوار سوف يتكالبون عليها لاسيما لو سولت لها نفسها أن تركب الترام. وهذا بالطبع ما لم يستل أحد أهل الورع سكينا أو مطواة، ومحوقلا مستغفرا يغمدها في صدر البنت ويضمن قصرا في الجنة.

بديهي أن ذهنك لم يتجه إلى أنني - في حديثي عن جرأة كل من البنت والشارع اللندني - أحبذ هذا اللون من العناوين على صدور البنات أو على أي مكان آخر من أجسامهم، فالابتذال لم يكن في أي يوم من الأمور التي تستهويني، إنما أردت أن أسجل للشارع اللندني قدرته الفذة على ضبط النفس، ومبالغاته في تقديس حرية الفرد حتى في أن يبتذل نفسه.

وفي النهاية لا أفهم السبب الذي من أجله اكتفت البنت بتلك الكلمة الواحدة مع أن صدرها كان يتسع للمزيد من التفصيلات. فلا شك أن عنوانا كبيرا كهذا كان يحتاج إلى بعض السطور الصغيرة التفسيرية، توضيحا منها لماذا تعنيه على وجه التحقيق بكلمة الجنس، هل هي مثلا معه أو ضده، وهل تعني به الجنس بين الأزواج أو بين غيرهم، على سبيل التسلية أو التجارة، وما إلى ذلك من المعلومات التي يحتاج إليها غريب مثلي، فهذا هو أحد العيوب التي ضايقتني في الإنجليز ميلهم الشديد إلى الغموض!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القبلة الحانية

وطوله لا يقل عن مترين وطول شعره نصف متر، في بنطلون مهلهل من نوع «البلوجينز»، وبقع لونية كبيرة تلطخ البنطلون إمعانا من صاحبه في تحقيق أكبر درجة من البهدلة العامة، فإذا تابعت البنطلون إلى أسفل وجدت صاحبه حافيا، قدماه الكبيرتان تتلاقى مع قدمين لحافية مثله تقف مستندة إلى صدره وبين ذراعيه، ليس في هايد بارك ولا في ركن مظلم من لندن، وإنما تحت الأضواء الساطعة، على ناصية شارع شافستبري الذي يمتلئ في ذلك الوقت بآلاف المواطنين والسياح الذين حضروا للتسكع في حي سوهو. ومثل مقاطيع إيروس قيل لي عن هذا اللون من الناس أنهم يرفضون كل أنواع الرسميات والتقاليد وينادون بالعودة إلى الطبيعة، وأنا شخصيا لا أجد أي علاقة بين الحفاء والفلسفة، وإذا كان لابد من الفلسفة وخلع الأشياء فلا شك أن هناك من القطع الكسائية ما ينطوي خلعه على عمق فلسفي أكبر. وما أظن هذا الفيلسوف الحافي سيكون قادرا على مواصلة فلسفته لو أصيب بالروماتيزم من طول وقوفه على الرصيف البارد المبتل، أو على الأقل لو دخلت في رجله شظية من زجاجة بيرة أسقطها سكران غير متفلسف.

لكن المنظر على العموم شهادة جديدة للشارع اللندني بالقدرة على ضبط الأعصاب وعلى قبول التحديات، إذ لا يبدو أن هذين العاشقين الحافيين قد أثارا اهتمام أي من المارة سواي. وسط الرصيف يعترضان زحاما لا مباليا، حولهما يدور الناس مثلما يدورون حول أي عائق عادي في الطريق. فيبدو إنه منظر مألوف في لندن وفي سائر العواصم التي لفظت أولئك السياح، وأنه قد صار من حق الرجل وفقا لمفهوم الحرية أن يجمع على أرصفة الشوارع بين وظيفة العاشق ووظيفة فانوس النور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القبلة الحانية

انتفخت أوداجي بشدة - وإن كنت لا أعرف على وجه التحقيق ما هي أوداجي - أمام العيون الجريئة الزرقاء التي تطيل التفرس في وجهي، للأنثى السكسونية الجالسة أمامي في الأتوبيس. ولمسة عذبة حالمة تخالط تلك النظرات فأقول لنفسي إنه لابد سحر الشرق وقد بدأ يفعل فعله في قلوب بنات الغرب، ويا له من حمار ذلك الخواجة كيبلنج، الذي زعم في ذات نوبة استعمارية أن الشرق والغرب لا يمكن أن يلتقيا.

وفجأة رأيت رأس البنت المفتونة يميل إلى الأمام شيئا فشيئا حتى كاد يسقط عند صدرها، لولا إنها سارعت برفعه مع الرمش بالعينين بشدة، الأمر الذي فهمت منه - متنهدا بالعمق المناسب للاستسلام - إنه لا سحر شرقي هناك ولا يحزنون، وكل ما في الأمر أن هذه بنت مجهدة تغالب النوم بعد يوم من العمل الشاق! فالبنت الغربية تعمل مثل الولد تماما، طوال ثماني ساعات من التاسعة حتى الخامسة، مع نصف ساعة عند الظهيرة تخطف فيه لقمة وفنجان قهوة، فلا عجب أن تتعب البنت وتعود إلى بيتها في المساء كالجثة الهامدة، أي إنه جدير بك أن تطرد من دماغك تلك الفكرة السخيفة عن وجود أية علاقة بين منظري الخاص وبين ذلك النوم الذي كبس على البنت فجأة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا الجرس

أكثر من مرة عزمت على أن أحذو حذو السائح العادي وأذهب للفرجة على تغيير حرس الملكة، ومنعتني من تنفيذ الفكرة أسباب كثيرة أهمها بالطبع أن الدنيا كانت تمطر. هذا وأنا من ناحية أخرى لا أوافق في قرارة نفسي على الفكرة ذاتها، حيث أن الملك الإنجليزي في صورته العصرية لا يحتاج في نظري إلى أي نوع من الحراسة، فمن الذي يخطر له أن يقتل الملك في وجود رئيس للوزراء؟

وهذا يتأكد بالطبع إذا كان ذلك الملك ملكة، فليس ثمة من يفكر في قتل الملكة غير مجنون هارب من المستشفى، وفي مواجهة مثل هذا الخطر لا أظن أن الملكة تحتاج إلى أكثر من بواب للقصر وكلب وولف. أما كل هذا العدد من الحراس بملابسهم المزركشة وقبعاتهم المضحكة فنوع من الإسراف الذي لا مناسبة له في موجة التدهور التي يتعرض لها الاسترليني، ولكن القصر الملكي يصر فيما يبدو على أن يظل قصرا إمبراطوريا حتى بدون إمبراطورية، وهو إصرار لا يفترق كثيرا عن إصرار برنس مصري سابق على أن يكون لسيارته سائق يلبس اليونيفورم والكاسكيت، يعطيه ماهيته في أول الشهر ثم يبدأ في اقتراضها منه من يوم خمسة!

نعم هي نفقات لا مبرر لها بالمرة، ويكون أحكم لو وجهت لتحسين حال بعض المواطنين المساكين، مثل الرجل الذي يقف على باب محطة ميدان راسل وقد علق على صدره لافتة تقول للمبصرين إنه أعمى. أو للرجل الآخر الذي أقابله كل صباح في شارع ستراند، طويل اللحية رث الثياب يتوكأ على عكازين يحملانه بسرعة غريبة إلى مهمة مجهولة لا يمكن بالطبع أن تكون الفرجة على تغيير الحرس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبلة تليفونية

لسبب لا يـهـمـك كـثـيـرا أردت أن أتكلم في التليـفـون وقـصـدت إلى الكشك العمومي لكي أجده مشغولا، لا برجل يتكلم في التليفون وإنما بشاب وفتاة يستندان عليه وقد التحما في حال من العناق العنيف. وعلى أطراف أصابعها تشب المضروبة لكي تغمر وجـهـه السـعـيـد بالقبلات، كارهة أن تترك جزءا منه وليس فيه أثر من شفتيها. وذلك الكشك - لعلمك - مصنوع من الزجاج الذي لا يحجب شيئا مما فيه، أي أنهما لم يدخلاه طلبا للاختباء وإنما لما فيه من هيئة الديكور الذي يجعل منهما أشبه بصورة في برواز.

ودقائق مرت وأنا أنتظر أن يشبعا ويخرجا بلا فائدة، فماذا أفعل سوى أن أتنهد وأنصرف باحثا عن كشك آخر؟ وعلى مسافة مائة متر تلفت خلفي فرأيت أن الـعـمـل مـازال جـاريا، وتمنيت لو أنني أجـيـد الكتابة بالإنجليزية لكي أكتب رسالة لمحرر التايمز، مقترحا فيها معاملة القبلة في أكشاك التليفون مثل معاملتنا في القاهرة للمكالمة التليفونية، وذلك بتعليق لافتة تقول أن مدة القبلة لا تزيد على ثلاث دقائق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

انظر يمينك

من رأيي أن الرجل لا يمكنه أن يقول - صادقا - إنه قد فهم مدينة لندن حق الفهم، ما لم يكن قد شرع من تلقاء نفسه في الالتفات جهة اليمين كلما همّ بعبور الطريق، ذلك الرأي الذي إذا سلمنا بصحته فيبدو أنني سأغادر لندن وكأننا يا بدر لا رحلنا ولا جينا! إذ هممت منذ قليل بالنزول عن الرصيف فرأيت على أرض الطريق كلمات كبيرة بالخط العريض الأبيض تقول لي انظر يمينك! فنظرت إلى يميني لكي أرى أجمل ساقين تبرزان في أجرأ صورة من أقصر ميكرو جوب، الأمر الذي جعلني أشعر بالإعجاب الشديد ببلدية لندن التي أمكنها أن تنبهني إلى المنظر بهذا التوقيت الدقيق! ومواصلا نظرتي اليمينية نزلت عن الرصيف لكي أسمع فرملة حادة لسيارة مقبلة، فقفزت إلى الخلف وقد تذكرت فجأة أن البلدية لم يكن عندها أية فكرة عن ذلك الميكرو جوب عندما أمرتني بأن أنظر إلى يميني وإنما كانت تعرف أن سائحا مغفلا مثلى سوف يحاول عبور الطريق من هذه النقطة، ناسيا أن السيارات في لندن - على عكس السيارات في البلد التي وفد منها أيا كانت - تسير على يسار الطريق لا على يمينه!

زغرة حادة من السائق قابلتها بالذلة المناسبة لجلافتي، ثم سرت في حال من الغيظ المتزايد من أولئك الناس الذين يصرون - بخلاف العالم أجمع - على أن يسيروا على الشمال. فلماذا يفعلون ذلك؟ هل يريدون أن يثبتوا للناس - مثلا - أنهم من طينة نفسية خاصة، وأن شيئا في الحضارة البريطانية قد نجح في تخليصهم من تلك العادة التي توشك أن تكون غريزية في الجنس البشرى - عادة السير على اليمين!

مستبعدٌ طبعا أن يكون هذا هو السبب، ومن السخف أن أحسم الأمر بقولي بأن عقلهم مركب شمال، ولذلك انتهزت فرصة وجودي في أحد التاكسيات وألقيت بالسؤال إلى السائق الذي يحتمل أن يكون عنده الجواب، فتنحنح الرجل وشرع في الإجابة بلهجة تدل على أنه قد سمع ذلك السؤال وسمعه وسمعه حتى سئمه إلى درجة الموت. وكانت إجابته مكونة من مجموعة فريدة حقا من حروف الراء والسين تساندها حروف أخرى، غير أنها للأسف لا تحتوى على أي كلمة من الكلمات التي مرت عليّ في أي من الكتب الإنجليزية التي قرأتها. فشكرته متظاهرا بالفهم وغادرت التاكسي وأنا أشد جهلا بالسبب الذي من أجله يسيرون على اليمين، دعك من السبب في أن الإنجليز لا يعرفون الإنجليزية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الرجل الغريب

زهقت ذات يوم من التوهان اللا إرادي فقررت أن أتوه على سبيل التغيير بكيفي! وكان ذلك في ذات أصيل تراءت شمسه وراء غلالة من سحاب يمكنك أن تصفه على سبيل التجاوز بأنه شفاف، أشبه شيء - تلك الشمس - بخيال لامرأة تلمحه وراء الستار فلا تعرف إن كانت حسناء أو شمطاء ولكنها على العموم تشيع في نفسك قدرا لا بأس به من الدفء.

في المحطة ركبت أول قطار صادفني من قطارات ما تحت الأرض مفاجئا بعد حين بأنه قد خرج من تحت الأرض وبدأ يسير فوقها، وسط رقعة خضراء توشك أن تكون قطعة من ريف بلادي لولا أني لم ألمح فيها أي نوع من الجاموس. ثم وقف القطار وبدأ كل الناس ينزلون فأدركت إنها محطة النهاية ونزلت مع النازلين، محطة هادئة تحيط بها الأشجار مثل محطة المعادي عندنا، وتؤدى إلى مجموعة كبيرة من فيلات متشابهة عتيقة الطراز عجزت عن أن أقطع هل هي فاخرة أو غير فاخرة. وشارع بين صفين منها أغراني هدوءه بأن أتمشى فيه إلى نهايته، لاسيما وقد لمحت عند تلك النهاية خلفية خضراء ربما كانت حقلا من الحقول التي أحبها.

فما كدت أوغل في ذلك الشارع حتى بدأ يساورني شعور مزعج يتنافى مع الهدوء الشامل المحيط بي، شعوري بأنني قد وُضعت فجأة تحت المراقبة ومن جميع الجهات. عشرات من العيون وراء الستائر المسدلة على النوافذ أحسست أنها ترقبني، وامرأة في مطبخها - وكانت نافذته بلا ستار - كفت عن العمل الذي تقوم به لكي تحملق إليّ وقد تدلى فكها فيما يشبه الذهول. وشاب مقبل راح يتفحصني بطريقة تتناقض كل التناقض مع ما ألفته من النظرات الإنجليزية السريعة المتجاهلة. وطفل في إحدى البلكونات ما كاد يبصرني حتى هب من مقعده كالملسوع وصاح بما معناه: بصي يا ماما!

فضربت أمه على يده زاجرة إياه عن الإشارة إلى الناس، ولكن عينها قالت لي إنها ليست أقل اهتماما بالأمر عن طفلها، مثل سائر الأشخاص الجالسين حولها في البلكونة والذين تركزت عليّ أبصارهم في نفس ذلك الاهتمام الذي لا يخلو من لمسة ريبة. وسرعان ما تقاربت رؤوسهم في شكل مؤتمر صغير للفحص في أمري.

- ماذا يفعل في شارعنا هذا الرجل الغريب؟

هكذا لابد أن يكون أحدهم قد تساءل، ولابد أن أحدا آخر قد أجاب:

- لابد أنه قادم ليزور أحدا.

- يزور من؟

- قد يكون مستر سميث؟

- ولماذا لا يكون مستر براون؟

- ولماذا لا يكون مستر هاريس؟

- ولماذا لا يكون مستر وليامز؟

- أوه نو! صحيح أن لها مباذلها الكثيرة منذ وفاة زوجها ولكنها لا يمكن أن تنحط إلى هذا الدرك!

ثم لا شك في أنهم تحولوا بعد ذلك إلى المناقشة في جنسيتي.

- إنه لا يبدو إنجليزيا.

- هو ليس أبيض كالأوروبيين.

ـ وليس أسمر كالأفريقيين.

- وليس أصفر كالآسيويين.

- ولكنه أجنبي قطعا.

فتلك هي مأساتي كما قلت ذات يوم، أنني أبدو أجنبيا أينما حللت! والداهية أنني في ذلك اليوم كنت أعرج بعض الشيء، ولابد أنهم راحوا يتناقشون في تلك المسألة أيضا. بين رأى يقول بأنني أعاني من أثار قديمة لشلل الأطفال، ورأى آخر يقول أنني رُقعت علقة حامية في بار حقير، ورأي ثالث يؤكد أنني قد أسأت تقدير ارتفاع النافذة وأنا أقفز منها بالمسروقات غير عالمين - سامحهم الله - أن السبب في عرجي. هو سفالة واحدة من بني جنسهم، تاجر في الأوكازيون قال لي وقد رآني أختار حذاء معينا:

- خذ ده أحسن.

فأخذت الحذاء الذي رشحه وما فاتت عليّ ساعة واحدة حتى كنت أعرج، وفتاة في بلكونة أخرى رأتني فصاحت قائلة جين! كرهت أن تراني وحدها وأن يفوت المنظر أختها التي خرجت من جوف البيت مسرعة وهمهمة بين الاثنتين ثم ضحكة صغيرة مكتومة. فلعنت أبا الحظ الذي رماني إلى هذا الشارع العجيب الذي يبدو من أمره أنه لم يعرف الأغراب منذ عشرين سنة على الأقل.

فحمدت الله عندما وصلت إلى نهاية الشارع حيث يوجد ذلك الحقل الأخضر، تلك النهاية التي كانت لسوء الحظ نهاية بالمعنى الحرفي للكلمة. فالشارع مسدود بحاجز من الأسلاك الشائكة التي تقول لمن يعبرها إلى الحقل وقعة أبوك سودة! ومن ثم فليس أمامي سوى أن أعود من حيث أتيت، وسط نفس النظريات ونفس الهمهمات والمناقشات الحامية، ولا شك أن أمري قد ازداد غموضا بعد أن عدت بهذه السرعة، لا زرت مستر براون ولا مستر هاري ولا حتى مسز وليامز!

ولكنني أعرف أنني قد أسديت خدمة لسكان ذلك الشارع وأعطيتهم بزيارتي هذه يوما يساعدهم في الربط بين الأحداث، ولن أعجب إذا كانوا اليوم يختلفون على تاريخ وقوع الحادث أو ذاك فيقول أحدهم إنه حدث في أغسطس 1967 مستدلا على ذلك بقوله: - بأمارة الراجل الأعرج ما كان فايت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أدب المزعج

وعلى أي حال فالسائق الإنجليزي الذي يريد أن يدهسني ولا يمنعه من ذلك إلا خوفه من العقاب، ظاهرة طبيعية تتمشى بسهولة مع فكرتي عن الرجل الإنجليزي كواحد من الذين بنوا الإمبراطورية على جثث الآخرين. إنما يستعصي على فهمي - وينرفزني - ذلك النموذج الآخر للسائق الإنجليزي الذي ما يكاد يراني أصل إلى حافة الرصيف حتى يدوس الفرملة من نفسه ليتيح لي فرصة العبور، حتى وإن كان هو قد وصل إلى المفارق قبلي، وإزاء هذا الذوق غير المتوقع أرسم أنا على وجهي أعذب ابتساماتي الشرقية وأشير له بيدي بما معناه:

- لا والله ما يمكن! اتفضل أنت...

وازاء هذا الذوق من ناحيتي بيقرر هو أن يكون أكثر منى ذوقا فيشير لي بيده الخاصة من وراء الزجاج مع ابتسامة غربية تقول:

- موش ممكن أبدا! حضرتك الأول..

فأعيد إشارتي ويعيد إشارته، ويضيع من وقتنا أكثر من دقيقة في تلك المجاملات الفارغة بين الشرق والغرب. وأخيرا أقرر أن أقبل دعوته إلى العبور قبله استنادا إلى أنه هو الذي بدأ سلسلة المجاملات، وذلك في اللحظة التي يقرر فيها هو أن يمر قبلي ما دمت مصرا على أن أكون أكثر منه ذوقا. فأنزل من على الرصيف في اللحظة التي يتحرك فيها، الأمر الذي يضطره إلى أن يفرمل مرة أخرى، وأرتد أنا إلى الرصيف كما كنت، ومن جديد نشرع في مهزلة المجاملات السابقة.

نعم إنه يستحق مني كلمة ثناء، ذلك السائق المهذب الظريف، ولكنني أعترف لك بأنه كما أسلفت ينرفزني. ففي ذلك الذوق المفرط ألمس عنصرا خفيا من السخرية الماكرة، بالإضافة إلى ذلك التشويه المقصود لفكرتي عن بناة الإمبراطورية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أين بناة الإمبراطورية؟

وأصارحك القول بأنني لم أر طول هذه الأسابيع في لندن أي إنسان يبدو من أمره إنه من بناة الإمبراطورية، الأمر الذي يدل على أنني إما أتحرك في الأماكن التي لا يوجد فيها أولئك البناة، وإما أنهم ظاهرة قد انقرضت من البلاد تماما.

لا يمكن أن يكون من بناة الإمبراطوريات ذلك الرجل العجوز الذي رأيته في حديقة ريجنت، جالسا على إحدى الدكك وحوله نحو من خمسين حمامة تأكل من الحبوب التي ينثرها لها بابتسامة حنون لا أثر لأى نوع من التطلعات الإمبراطورية.

ولا يمكن أن يكون منهم ذلك الرجل الآخر الذي رأى باقي الشلن يسقط مني على الأرض في محلات وولورث، فانحنى ليساعدني على جمع البنسات البرونزية متلقيا شكري بابتسامة عريضة تقول لي: العفو. وبالطبع لم أصل إلى تلك الحقيقة الخاصة بأنه ليس من بناة الإمبراطورية إلا بعد أن عددت البنسات ووجدتها كاملة!

ولا منهم ذلك الرجل الذي جلس في المترو المزدحم وعلى حجره طفله الصغير، الذي التحم - الطفل لا الرجل - مع طفل هندي يجلس في المقعد المقابل على حجر أبيه الهندي الخاص. بالأيدي الصغيرة يتضاربان في مزيج من الدعابة والخناق الطفولي، ذلك المنظر الذي ارتسمت له على وجه الأب الإنجليزي بسمة تفيض باللا عنصرية الحلوة وبالتقديس المشكور للأخوة البشرية. فأين هذا الرجل من بناة الإمبراطورية الذين داسوا في الهند على أكثر من طفل هندي، غير حافلين باحتمال أن يكونوا قد أنجبوه بأنفسهم في إحدى الحملات على هذه القرية أو تلك؟

فيبدو أنني سأغادر لندن دون أن ألتقى بأي من بناة الإمبراطورية، اللهم إلا إذا كان واحدا منهم ذلك الرجل ذو الأنف المعقوف، الذي زغر لي بشدة من وراء زجاج الرولز السوداء، مع أنني لم أفعل شيئا أكثر من إشارة أدعوه بها إلى الوقوف معتقدا أنها سيارة تاكسي.

ومن السماء دوى أزيز لطائرة ركاب ضخمة، بريطانية من الغالب ما فيها من ألوان كثيرة موحية. فيها الأسود بلون زنوج أفريقيا وأستراليا، وفيها البني الفاتح بلون الهنود في آسيا وأمريكا، وفيها الأسمر الهادئ بلون المصريين والعرب، وفيها الأصفر بلون أهل الصين واليابان، وفيها الأحمر بلون دماء جميع الذين ماتوا ببنادق المستعمرين في تلك البقاع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مصر في لندن

ما كنت بالطبع لأغادر لندن قبل أن أزور متحفها الشهير، وهناك قصدت على عجل إلى القسم الفرعوني، مشتاقا في غربتي إلى شيء يوحي إليّ بأنني مازلت في بيتي. وفي صدر القسم رأيت كتلة كبيرة من الصخر هي حجر رشيد، مجيد يا حجري حيث تقف هناك في صدر القسم ويسمونه حجر روزيتا بنفس الجلافة التي جعلتهم يسمون المسلة إبرة، وتقول الكتب إنهم سلبوه من الفرنسيين عندما هزموهم بقيادة وغد اسمه آبركرومبي، غير عالمين أنهم لو لم يسلبوه لأخذوه فيما بعد على سبيل الهدية من الباشا الفنجري. ولعل هذا، السبب في أنهم حولوا اسمه إلى حجر روزيتا، تعميدا له باسم غربي لكي لا يتذكروا أنهم سرقوه كلما نطقوا بكلمة رشيد، ومجموعة هائلة من آثارنا تملأ أركان المتحف، من الأسورة التي كانت تستخدمها الأنثى الفرعونية العادية في تزيين معصمها، إلى رأس هائل من الجرانيت الأحمر لتحتمس الثالث ذات نفسه، وذراع طولها عدة أمتار من تمثال مكسور لرمسيس، وأسود أمينوفيس رابضة في صمت حزين وسط أصداء بعيدة لتراتيل كهنة آمون في كتاب الموتى.

وموتى كثيرون في توابيتهم المزركشة الواقفة مثل صف من الحرس، وفي صندوق زجاجي كبير ترقد مومياء لبنت مصرية غير معروفة. بصعوبة وجدت ثغرة أراها منها بين فخذين جريئين في الميكرو جوب، طاردا من دماغي حكمة مبتذلة لأبي العتاهية عن الولادة للموت والبناء للخراب. ولا شك في أن أفكارا مماثلة دارت في دماغ ذلك الحشد من السياح وهم ينقلون البصر بين الميكرو جوبات وكفن البنت، التي لابد قد تهادت ذات يوم في فستان من الكتان الشفاف، سالبة لب أكثر من ذكر مصري ولهان.

مجيدة يا أيتها البنت المحنطة ويا حجر رشيد لا روزيتا، ويا ذراع رمسيس ويا رأس تحتمس، ويا كل قطعة فرعونية منهوبة في لندن تصرخ لاهجة بالمجد الذي كان لنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإبرة الخالدة

كذلك ما كان لي أن أغادر لندن دون أن أرى مسلتي القائمة على شاطئ التايمز، مجيدة أنت يا مسلتي حيث تقومين هناك شامخة رغم الغربة حاكية للعالمين العالمين قصة المجد الذي كان مجدنا. على شاطئ النيل منذ أربعين قرنا قبل أن ينجح أصحاب التايمز في كتابة اسمه أو حتى مجرد النطق به، فهي صعبة بعض الشيء - كلمة تيمز - على رجل فرغ لتوه من التهام سمكة نيئة صادها بحربة من الصخر المسنون وغاصت منها شوكة في لسانه وأخرى في حلقه البدائي.

يسمونها هناك إبرة كليوباترا، مدللين بذلك على جهلهم الفاضح. أو على الأقل على ازدراء العلماء منهم لثقافة العابر العادي على رصيف فيكتوريا فهي من ناحية لا تمت إلى كليوباترا بأية صلة، إذ يثبت قبل مولد المذكورة بنحو من خمسة عشر قرنا، وهي من ناحية أخرى أكبر بكثير جدا من أن تكون إبرة، مهما بالغنا في تصور الحجم الذي كان لأي من الترزي أو الخياطة الفرعونيين.

بناها تحتمس الثالث في هليوبوليس عام 1500 قبل الميلاد، جالسا في ظلها وفي غفلة من حتشبسوت يحلم بأمجاد المستقبل في مجدو والنهرين. وبعد قرنين من الزمان أضاف، الثاني إلى نقوشها بعض كلمات من عنده، ذلك التطفل الذي طالما وقع في أحسن العائلات حتى - ولاسيما - إذا كانت ملكية. فلما غزا الإغريق مصر نقلوها من هليوبوليس إلى الإسكندرية التي جعلوها - لحبهم للطراوة - عاصمة رسمية للبلاد. وهناك تحولت من رمز ديني إلى مجرد أداة للزينة.

وخلال القرون التالية لا أشك في أنها شعرت بقدر كبير من الوحشة والغربة والارتباك إزاء ما لا يبرح يتردد حولها من أصوات جديدة غريبة وكثيرة منها منكر هدير عجلات الرومان وتنهدات كليوباترا بين أحضان أنطونيو على إيقاع من صرير أسنان أوكتوفيوس. ثم صليل سيوف عمرو بن العاص ونداء من فوق مئذنة ممشوقة كالمسلة يقول إن الله أكبر، ثم سنابك خيل الأتراك والمماليك بريين وبحريين، الأصوات التي ما لبثت أن خنقت في فرقعات القنبر الفرنسي الذي نزل على الناس وما كانوا عاينوه من قبل.

كل ذلك شاهدته مسلتي في صبر فرعوني تشكر عليه حقا، غير عالمة بتأشيرة الخروج التي تعدها لها أقدارها العابثة، إذ ولي حكم البلاد بائع سجائر من قولة اسمه محمد على وفي لحظة انسجام تركي برم شنبه وقرر إهداءها للشعب البريطاني العزيز متوهما رحمه الله بأنه بذبحه للمماليك في القلعة ورث كل شيء في العزبة المصرية حتى مجد تحتمس.

وكان الغرض من الهدية مشاركة الإنجليز في احتفالهم بنلسون، تمجيدا لانتصاراته البحرية على فرنسا وإسبانيا دعك من انتصاره البري على لورد هاملتون، وتمجيدا في الوقت نفسه لإنجليزي آخر اسمه، سير رالف أبركرومبي،

درس القانون كما يقولون ثم هجره مفضلا عليه شريعة الغاب، ومات في أبوقير وهو يطرد من حول المسلة ما تبقى هناك من فلول بونابرت.

ما خطر قط لولى النعم وهو يبقشش على الإنجليز بالمسلات أنهم على وشك تسجيل انتصار آخر لن يرتاح إليه كثيرا، انتصارهم شخصيا في حرب المورة وتحطيم أسطوله في موقعة نفارين، وهناك ظفرت أسماك البحر الأبيض بوجبة أكبر من اللازم من اللحم المصري المملح بأحلام الباشا الدخاخني، الذي اتضح أخر الأمر أنه لم يكن جنديا من معدن ممتاز.

غير أن صعوبة شحن مثل هذه المسلة الضخمة «300 طن تقريبا» كانت سببا في تأجيل الرحلة حينا من الزمن. ولم يعمد الإنجليز إلى تنفيذ العملية إلا في سنة ١٨٧٧، إذ صنع لها رجل إنجليزي اسمه أرازموس ويلسون اسطوانة ضخمة تحميها من الماء وتسحب فيها من الإسكندرية إلى لندن، تلك الرحلة التي يدل مجرى الأحداث على أنه قد صحبتها من آلهة أجدادي ألف لعنة ولعنة. فلابد أنهم عقدوا اجتماعا سريعا برئاسة آمون ورع. ذلك الاجتماع الذي تمخض عن انتداب إله الريح «شو» للسفر إلى خليج بسكاي ليكون في انتظار السفينة. إذ هبّ هناك من الرياح ما عصف بتلك السفينة وقذف بها على صخور الشاطئ، وما أشك في أن إيزيس قد أسهمت في استثارة غضب الأمواج بشيء من دموعها، وأن نقصا في الفيضان لهذا السبب - قد شكا منه المزارعون على شاطئ النيل. وفي تلك العاصفة مات ستة بحارة من طاقم السفينة وهُجرت المسلة في اسطوانتها على أحد الشواطئ المقفرة، وعام كامل مرّ قبل أن يعاودوا البحث عنها وينقلوها إلى لندن بمعرفة رجل اسمه جون ديكسون، وهناك أقيمت على شاطئ التيمز غير بعيد من القصر الملكي، لكي تتمكن الملكة فيكتوريا من رؤيتها كلما خرجت لتمشي رجليها الملكيتين.

من ذلك اليوم صار اسمها إبرة كليوباترا وصارت إحدى المعالم السياحية لمدينة لندن، وأمامها وقفتُ في خشوع أتلو صلاة فرعونية صامتة، وأنثى سائحة صعدت السلالم القليلة المؤدية إليها وأسندت ظهرها عليها مع التقصع، باسمة للكاميرا التي يصوبها إليها صديق العائلة. وسائحات أخريات غرن منها فأقبلن وحذون حذوها: رافضات أن يعدن إلى بلادهن وليس في ظهورهن أثر من إبرة جدي. والجميع يمرون بي ولا ينتبهون إليّ، غير عالمين - الجهلاء - أنني الوريث الشرعي لتلك المسلة ولكل ذلك المجد الذي كان. فوددت أن أعتلي تلك السلالم وأشرع في إلقاء كلمة تعرفهم بشخصي، لكنني آثرت أن أؤجل الأمر لحين لحظة من التفسح النفسي تصيبني فجأة في هايد بارك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

هل هي بطتي

على دكة على شاطئ القنال الصغير في الضاحية اللندنية المسماة بفينيس الصغيرة، جلست أرقب بطة جميلة طافية على سطح الماء، باسما لها في حنان بسبب ذلك الشعور المبهم بأنني أعرفها، وبأنني ألقيت لها ذات يوم لقمة سميط في جزيرة الشاي بالقاهرة فشكرتني بقولها كاك.

فعندما يقترب الشتاء سوف ترتعد لحظة ثم لا تبرح أن تبسط جناحيها الصغيرين المزركشين وتطير، عبر المانش تحلق لا أخذت فيزة ولا باسبور. وعبر مزارع الكرم في فرنسا، عسى أن تقف لحظة لتستريح فوق طرطوفة برج إيفل. ووقفة أخرى فوق جبال الألب، متلفتة حولها تبحث عن جزيرة الشاي، ثم عبر البحر الأبيض فوق الأسطول السادس، أرجو أن تسقط على كتف أحد الكباتن علامة صغيرة ترقيه درجة.

أما حاليا فهي تطوف مثلي في لندن، وفي عينيها السوداوين البراقتين رأيت نظرة تأكدت منها إنها هي الأخرى قد عرفتني وتريد أن تسألني أين لقمة السميط. فهي بالطبع لا تعرف أن هذه الأشياء غير موجودة في لندن، وأن هذا الترف الغذائي لا يوجد في غير أسواق القاهرة. ولقد كنت لأجلس ساعة أناجيها لولا الظروف التي تدخلت لتقطع جلستي والتي أعتقد أنك قد عرفتها من نفسك، وهي ذلك الرذاذ الذي بدأ يتساقط معلنا أن السحب قد شربت من الماء أكثر من اللازم! فنشرت المظلة فوق رأسي وواصلت الجلوس في عناد، وتذكرت ما قرأته في كتيب سياحي عن أن الشاعر براوننج كان يقيم في مكان ما على الترعة. فلربما يكون قد جلس على هذه الدكة وناجى مثلي جدة لهذه البطة، ثم قطع خواطره مطر كهذا المطر فملأ نفسه بالمرارة التي تفيض بها أكثر من قصيدة له! أنا شخصيا لو أقمت هنا عاما كاملا لانتهى أمرى ككاتب فكاهة، ولبدأت أكتب أشياء يتحول إزاءها شوبنهور نفسه إلى كبير المتفائلين!

وهزت بطتي ذيلها وجدفت بساقيها بسرعة لتحتمي هنا أو هناك من ذلك الإسهال السماوي، وبينما تبتعد التفتت وراءها نحوي وسمعتها تناديني، قالت لي قابلني بعد شهرين في جزيرة الشاي، ولفتة ثانية إلى الوراء لتقول لي وما تنساش السميط! فلست أدرى من أين جاء كل هذا الحنين الذي فاض في نفسي فجأة نحو الوطن الحبيب، وبنسات كثيرة تشخلل في جيبي عددتها فوجدت أنها تكفي لحملي إلى المطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

وداعا يا لندن

وإذا كانت لندن إحدى عواصم الدنيا فقد بدت من الطائرة المحلقة كتلة من المباني الصغيرة المتشابهة التي قد تكون بيوت ناس وقد تكون أعشاش نمل. وما لبثت المدينة كلها أن اختفت عندما صارت الطائرة فوق تلك الكتلة الرمادية من السحب المتكاثفة، التي لابد إنها عاكفة في تلك اللحظة على قذف العالمين هناك بآلاف الكلاب والقطط. على كل من راكبي الرولز وأكلي السمك والتشبس، والخاطبين في هايد بارك الشاحذين في شارع أوكسفورد، والعجائز المتوقفات عند الأشجار بالكلب العزيز، والمادات أبوازهن العطشى لذكر بارد متردد، والمقاطيع المتقصعين والحفاة، والجريئة عيونهن وأفخاذهن في كل مكان، والحمائم المتخمة والقطط الملظلظة ذات الأجراس، والتماثيل العالية المبتلة لرجال خرجوا ذات يوم يطاردون بالسيف ضوء الشمس، وأعلى منها كلها إبرة جدي الشامخة على شاطئ التيمز، راوية للناس وإلى الأبد قصة المجد الذي كان مجدنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

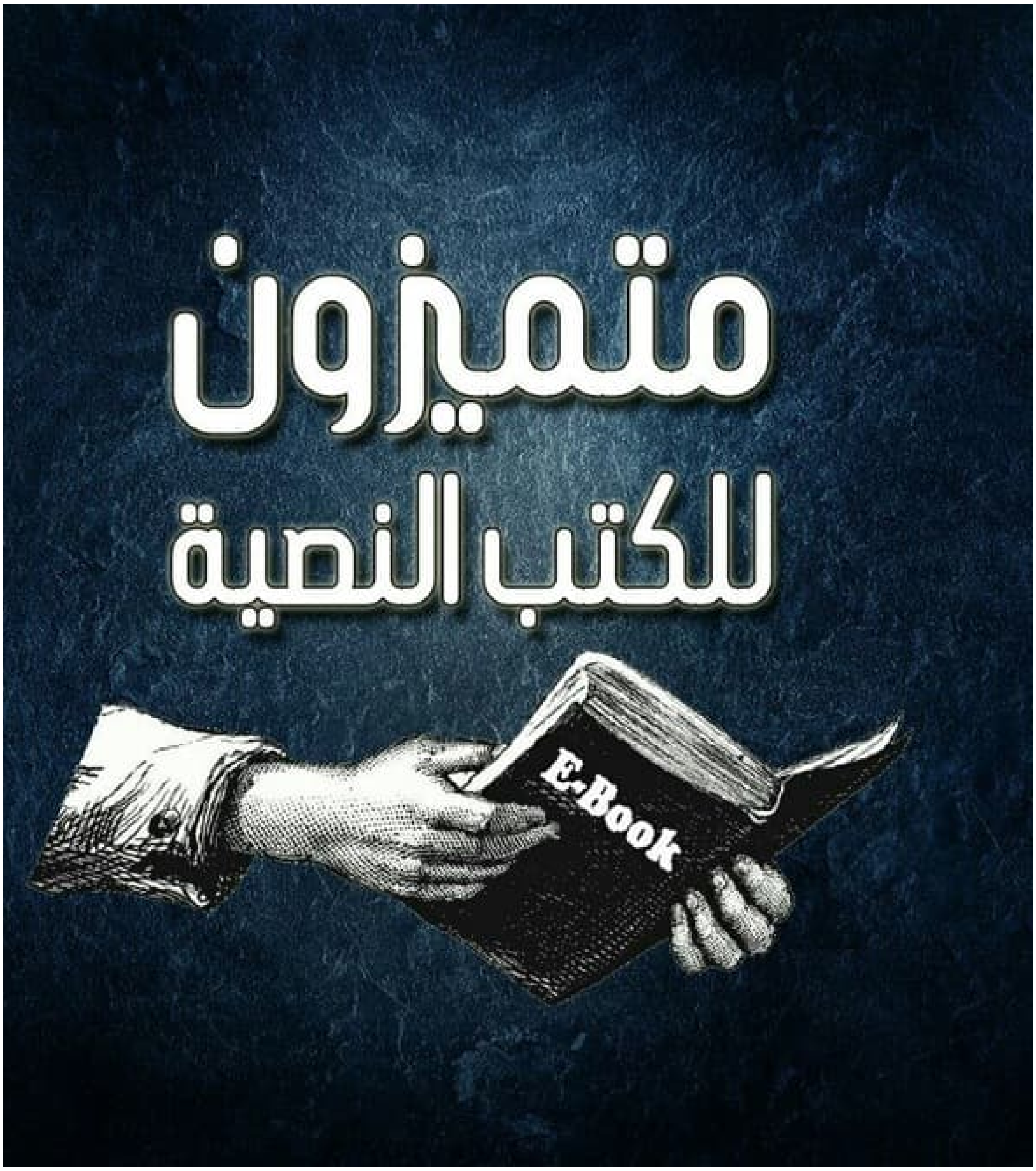
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس..

بشائر لندن

في الطريق

السيقان الموسيقية

نوع من العيون

القبلة الحلال

الكنيسة الخاوية

السماء المباصقة

الخضرة الخضراء

عصافير الليل

عواطف شرعية

الإنجليزي المذعور

الحمام والقرصان

شيء من الفن

ولد أم بنت

فلسفة الشعر

عصر الآلة

مقاطع بيكاديلي

الآنسة المتجردة

الشيش المفقود

نوع من القطط

الحمام المقدس

إتفضل معانا

هل هي أنثى؟

الشحاذ الصغير

عيون خائفة

عبادة الشمس

في ركن الخطباء

الشحاتة: كفنٌ جميل

نسبية الفقر

العسكري الحزين

يلّا حسن الختام

فائدة للشفاطة

بلد الكلاب

الإنجليزي البارد

أبيض وأسود

من الذي يقود القطار

جحيم من القبل

مقاطيع أم موظفين

مع السلف الصالح

سيدة طيبة

عصر الآلة

فتاة غامضة

القبلة الحانية

القبلة الحانية

لماذا الجرس

قبلة تليفونية

انظر يمينك

الرجل الغريب

أدب المزعج

أين بناة الإمبراطورية؟

مصر في لندن

الإبرة الخالدة

هل هي بطتي

وداعا يا لندن